

مدخل

فكرت في تأليف هذا الكتاب مع انتصار الثورة الجزائرية ،
واتضح طابعها الاسلامي .. والخطأ الذي وقع فيه بعض المفسرين
من المشرق العربي في محاولة لستر افتضاح مفاهيمهم .. هذه
المفاهيم التي عاشت خلال نصف قرن تشر بأنه لا ثورية الا بنفى
الاسلام ، ومحاربة الاسلام .. ثم فاجأتهم أعظم ثورات العصر
بروحها الاسلامية الكاملة .. فراحوا يعتذرون لثورة الجزائر !
مقسمين بأغلظ الأيمان ، أنها ظاهرة جزائرية ، سبها رعونة
الفرنسيين .. وأنها لا تصلح للنقل ولا للتطبيق .. ولا داعي
للمغالاة في أهمية هذا الحدث الذي يرجى زواله باذن الله .. !

وهكذا أثبتوا أنهم ليسوا فقط عاجزين عن الاكتشاف ، بل
عاجزون حتى عن التعلم ..

وقبل أن أكتب السطور الأخيرة في هذه الدراسة ، كانت
الأزمة مع حزب البعث - الذي لم يؤمن به يوماً من الأيام - قد

بلغت الذروة وتبين التناقض في الحركة العربية عامة في المشرق ••
وعلى صليل السيوف ودوى الرصاص في جبال الشمال بالوطن
العراقي - وذلك قبل أن يتدارك الأمر اسلام الرئيس عارف
وحكمته - كان لا بد أن تطرح القضية بوضوح تام •• وبصراحة
•• مهما تكن الصدمة للبعض •• فإن الصدمات هي طريق الشفاء
لمرضى العقول •• أما مرضى القلوب فلا دواء لهم *

وفي اعتقادي أن أزمة المشرق العربي •• أو أزمة الحركة
العربية ، هي ذلك الجفاء بينها وبين الاسلام •• محاولة خلق قومية
علمانية على الطراز الأوروبي •• دون مبرر أو سند تاريخي أو
قومي *

ويمكن أن نرجع سر المفهوم القاصر للقومية العربية •• الى
أن الحركة التي يمثلها البعث والتيارات الدائرة في فلكه ، هي من
بقايا ما يسمى « بالثورة العربية » •• التي صنعها الانجليز لتدمير
تركيا عدوتهم في الحرب العالمية الأولى •• والتي كانت هي
والانحاديين ثم الكماليين مخططا انجليزيا لتمزيق أقوى رابطة تتهدد
امبراطوريتهم الجديدة في آسيا العربية *

(١) من المؤسف ان الحرب قد عادت من جديد ، وامتنق العربي الحسام في وجه
أحفاد صلاح الدين • ونسى أحفاد صلاح الدين موعدهم في فلسطين • وان العدو
لم يكن يوما هو العرب بل الذي قال مثله شامتا فوق قبر قاهر الصليبيين :
« لقد عدنا يا صلاح الدين » •

الثورة العربية كما رسمها لورنس وقادها ، كانت ترى لنفسها هدفا واحدا ، هو تحطيم تركيا •• واجلاء جيوشها عن المنطقة الواقعة بين شرق السويس وغرب الخليج العربي ••

ومن الطبيعي أن هذه الحركة التي عبثت ضد الخليفة ، تتآفر مع أى تفكير فى الوحدة الاسلامية ••

وكان من الطبيعي أن تتجاوب هذه الحركة التي صنعها وقادها لورنس ، مع الغرب •• وأن تنحصر دائرة نشاطها فى ما يعرف بسوريا الكبرى ، أو الهلال الخصيب •• فلم يكن للانجليز مصلحة فى اثاره ثورة فى مصر التي يحتلونها فعلا •• ونفس الشيء بالنسبة لفرنسا فى المغرب العربي ••

كذلك لم يكن من المعقول أن يقبل المصريون على ثورة يقودها ضباط المخابرات الانجليز ضد تركيا •• ومصر يحتلها الانجليز •• ولا تشكل تركيا أى خطر عليها •• ورغم اشتراك الجنود المصريين اشتراكا فعليا فى الثورة العربية ، ومساهمتهم فى هزيمة تركيا فى الجزيرة والشام •• ورغم اشتراك كبار العسكريين المصريين من أمثال عزيز المصرى •• الا أن الروح العربية الأصيلة فى مصر كانت تنظر ببرود لهذه الحركة التي تتحالف مع العدو الحقيقي الذي يهدد البلاد العربية •• وهو الاستعمار الغربى ••

ولم يكن المصريون وحدهم فى ذلك ، بل شاركهم كل الذين

ابتلوا بالاستعمار الغربى فى المغرب العربى ، كما يروى عمار أوزيجان عن الجزائريين الطيبين الذين كانوا ينتظرون أسطولا يرسله السلطان من اسطنبول ، فيخلصهم من الاحتلال الفرنسى .

وكذلك العناصر الواعية فى المشرق العربى ، التى كانت تدرك خطورة الاستعمار الأوروبى الذى يزحف ليرث العرب من الحكم التركى ، والذين كانوا يعلقون الآمال على وحدة اسلامية بين العرب والترک ، فى ظل حكم ديموقراطى مزدهر يقف ضد الزحف الأوروبى ' .. حتى خابت آمالهم فى « الأحرار » الأتراك الذين تبين أن السم الغربى قد وصل الى نخاعهم .. ولم يكن أتاتورك أقل من كرومر .. خدمة لأهداف الاستعمار ..

فلما سقطت الأمة العربية كلها فريسة للاحتلال الغربى ، وانهت الخلافة ، وشرد الانجليز الشريف حسين بعد ما تجرأ على الدعوة لها .. اتجهت الحركة الوطنية العربية ضد هذا الاستعمار ، الذى فاق فى اجرامه كل ما ارتكبه الترك والتتار ..

وهكذا نرى أن الحركة الوطنية فى المغرب العربى لم تخضع حربا ضد تركيا ، لم تتعرض لهذه الفجوة بين العروبة والاسلام

(١) تأمل موقف شكيب أرسلان ورشيد رضا .. وكيف حرص لورنس على ابعاد الأمير عبد القادر الجزائرى الحفيد من سوريا ..

(٢) هذه واقعة يرويها بورقيبة : « كان الفريق الثانى يبحث عن اظهار الرابطة المرجودة بين تونس والدولة العثمانية ، أملا فى أن تكون درعا =

•• بل كانت عروبتها في اسلامها ، واسلامها هو وطنيتها •• بينما ظلت الحركة الوطنية في المشرق تشكو هذا الانقسام ، فقد ورثت شعار القومية العلمانية ، الأقليات التي سارت على مبادئ ومفاهيم « لورنس » بعد أن أذكى الاستعمار روح الطائفية فيها ، ومزق الشام شر ممزق •• وأثار مخاوفها بحركات دينية اسلامية مشبوهة •• فتحصنت هذه الأقليات في الشام بالذات بفكرة القومية العلمانية على طراز أتاتورك •• وسار في تيارهم بعض المصريين •• ولعل ذلك يفسر عداء سلامه موسى للطربوش ، وتحيزه للقبة بلا حجة واحدة معقولة •• الا - في نظري - كون الطربوش يمثل عنده الرابطة العثمانية ، والقبة ترمز لأوروبا ••

= لصيانة البلاد اذا ما أرادت فرنسا الاعتداء عليها • وقصد خير الدين باشا الى اسطنبول عام ١٨٧١ ، أي بعد هزيمة فرنسا في حربها مع المانيا بقليل ، سعيا لاغتنام فرصة ضعف فرنسا • فركب مركبا قاصدا الأستانة ليأتي للباي بوثيفة (فرمان) ولايته على تونس حتى تظهر تونس أمام فرنسا جزءا من الامبراطورية العثمانية • لكن فرنسا في حالتها تلك على ضعفها وانهازاتها ، ورغم انها لم تبرم بعد الهدنة مع المانيا ، وما زالت أراضيها محتلة - تفتنت لغاية رحلة خير الدين ، وقاومتها رغبة منها في بقاء تونس شكليا مستقلة ، ليسهل ابتلاعها بدون حدوث مشاكل عالمية مع السلطان العثماني والدول المرتبطة معه مثل روسيا وبريطانيا • فما إن غادر مركب خير الدين باشا الساحل التونسي حتى بدأ يطارده طراد فرنسي (فرقاطة) وأراد الطراد أن يمنعه من مواصلة الطريق ، وحدث تساؤل وتامل على متن المركب التونسي • لكن خير الدين أمر بمواصلة الطريق ، وأسرع المركب الى مكان ضيق لايسطيع أن يلاحقه فيه الطراد الفرنسي • فوصل المركب الى اسطنبول ، ورجع خير الدين بالفرمان باعتبار تونس جزءا من الامبراطورية العثمانية « ص ٢٢ مدخل الى تاريخ الحركة القومية » •

ولم يكن سلامة موسى يخفى اقتناعه بأن الزى يؤثر فى تفكير مرتديه •

كانت الدعوة للقومية العربية كما فسرتها الحركات الجديدة الناشئة فى الشرق العربى ، والتي « تصادف » أن قادتها من غير المسلمين - تعنى رفض الوحدة الاسلامية •• استبعاد الاسلام •• على أساس فصل الدين عن الدولة •• ولما كانت هذه المشكلة لا وجود لها فى المجتمع الاسلامى ، فقد أثمر الالاح عليها ، عداً بين الفكر التقدمى العصرى وتاريخ الشعب العربى وواقعه •• ثم كان الالاح السخيف على الشعوبية ، والدخلاء ، وهو ما لم يعرفه تاريخ العرب •• ولا عرفته أمتا التى عاشت فى أخوة تامة مع الأقليات المسلمة من أكراد وشركس^١ وبربر •• وزنج •• وامتزجت دماؤنا وارتبطت آمالنا وآماننا ••

وهكذا أصبحنا نجد متشدين بالفكر التقدمى •• معزولين عن جماهير الشعب •• وعلى الجانب الآخر ، حركات دينية رجعية معزولة عن الفكر الثورى ••

وكان لابد لعربة الثورة كى تسير ، من أن يتم الربط بين

العجلتين :

الفكر الثورى •• والوجود القومى ••

(١) لا شك أن الشركس قد انصهروا فى الأمة العربية واصبحوا جزءا لا ينفصل عنها •

كان لا بد من اكتشاف ثورى لوجودنا ••

وضاعف من خطورة الحاجة الى هذا الاكتشاف •• تبه الغرب
للنهضة العربية ، وشنه حلقة جديدة فى تاريخ الحرب الصليبية ••
والغرب فى عدائه لنا لم يفصل أبدا بين العروبة والاسلام ،
وان حاولت جامعاته وارسالياته أن تلقنا غير ذلك •• بل ان «مورو
بيرجر»^١ مؤلف كتاب «العالم العربى اليوم» يقولها صراحة فى
معرض الحديث عن معارضة الغرب للوحدة العربية •• «لقد ثبت
تاريخيا أن قوة العرب تعنى قوة الاسلام ، ونفس الشيء يمكن أن
يتكرر اليوم حيث يحرز الاسلام انتصارات واسعة فى افريقيا»^٢
والحق أن هذا هو السبب الحقيقى لمصاداة الغرب للوحدة
العربية •

ليس من المعقول أن تكون هذه المعاداة من أجل البترول
وحده ، كما يظن البعض ، فأوروبا تعادى العرب قبل اكتشاف
البترول ، وكلنا نعرف كيف وقفت كلها ضد محمد على •• والبترول
لم يبق فى عمره سوى ربع قرن فى أفضل التقديرات •• وحتى
لو طال عمره ، فمن الثابت أنه مرتبط بأسواق الغرب على نحو
لا يخشى الغرب عليه ، مهما كانت الحكومة القائمة عند آباره •

(١) أستاذ الشرق الأدنى بجامعة برنستون الامريكية •

(٢) يجب أن نفرق بين البترول كسلعة أساسية فى أوروبا وبين الأرباح الظللة التى
يحققها الوضع الاحتكارى الاستعمارى لشركات البترول •

والغرب لا يرهب وحدثنا لمجرد أننا سنصبح مائة مليون ••
فالهند أضعاف هذا الرقم ، وليس من يأبه بها •• لأن الهند لا رسالة
لها •• والذين يتحدثون عن أمة واحدة •• ذات رسالة خالدة ••
ينسون أن يحددوا لنا ماهية هذه الرسالة •• ولا نظن أن «العروبة»
رسالة ، لأنها لا تعنى سوى العرب ••

رسالة أمتنا •• هي الاسلام •• بها خرجنا للعالم •• فأسهمنا
فى تطوير الحضارة البشرية ، وأثرينا تاريخ الانسان ، ودفعنا بالقيم
الفاضلة الى مدارج أعلى •• ومفاهيم أنبل ••

وبالاسلام تمتد حضارتنا لتلتقى فى أخوة مع شعوب آسيا
وأفريقيا •• وهنا مصدر رعب الغرب •• بل لا يخفى أن سر تأييد
الغرب للقومية العربية بمفهومها العلماني ، والتي يشر بها البعث
وأضرابه - هو خوفهم من قومية عربية اسلامية، بدأت أعلامها تبرز
من القاهرة والجزائر •• وسر الحقد على القاهرة هو ادراكهم
للروح الاسلامية التي لا تقهر فى مصر •

الا أن مصر لم تكتشف روحها العربية المسلمة الا عندما
خرجت ميدان السياسة العربية ••

قضية وجود

ولم يكن خروجنا للوطن العربي رد فعل .. حتى وان بدا
كذلك ، بل حتمية تاريخية تابعة من وجودنا .. جاءت في توقيتها
الطبيعي .. فنحن ، وبالتالي ثورتنا - ما دامت تعبر عنا - مصريون ..
عرب .. مسلمون *

هذه قضية وجود .. لا خيار لنا فيها *

اتنا نرث الوجود كما نرث اسمنا وجنسنا ولوننا .. وبالطبع
نستطيع أن نغير اسمنا وديننا ، بل وأن نسلخ جلودنا ونستبدلها
بأخرى .. يستطيع محمد حسن الاسكندراني .. أن يغير دينه
وجنسيته ويتسمى بلويس مارتان ، ولكنه سيبقى أبد الدهر ..
محمد حسن الاسكندراني ، الذي تجنس بالجنسية الفرنسية ، وغير
دينه واسمه الى لويس مارتان *

نحن نرث الوجود .. لحظة ميلادنا في عصر معين ، وفي نقطة

معينة من خطوط الطول والعرض .. ولا نملك اختيار هذا الوجود،
ولكننا أحرار في تقويمه ، وتشكيله ، والانقسام داخله ، أو حتى
التكرار له ، والتبرؤ منه ؛ ولكننا نحمل بصماته أبد الدهر .

والأمم الباقية، هي التي تجعل وجودها فوق كل التفاصيل ..
والحضارة المزدهرة هي التي توفق الى فلسفة .. أو دين .. أو
نظام .. يحمي وجودها ، وينشر هذا الوجود ..

وعندما تواجه أمة من الأمم تفوقا حضاريا يهدد وجودها
بالفناء .. وتعجز عن منافسة هذا التفوق أو امتصاصه ، فإن أفضل
ما تفعله هو الاحتماء « بقوقعة » وجودها المتخلف .. حتى تستجمع
قوتها ، أو يتفسخ عدوها ، فتخرج من قوقعتها ، لتتمثل كل الجوانب
المتقدمة من الحضارة المعادية ، وتطور حضارتها هي ' .

(١) ذلك ما فعلته أوروبا الصليبية في العصور الوسطى ، عندما جوبهت بتحدى
التفوق الحضاري الاسلامي ، تفوقتم في تعصبها الاعى ، لتحمي روحها من
ان تسحق تحت تأثير تفوق خصمها .. وسانقل هنا من مقال للكاتب الايراني
حسن جوادى .. بعض مظاهر هذا التعصب :

« انزعجت أوروبا من وجود الامبراطورية العربية ، واعتبرت تلك الامبراطورية
عقابا من الله ، وخطرا يهددها بالفناء . وكان أكثر المروجين لهذا الرأي من
الاسيائيين ، الذين شاهدوا سقوط ملكهم وانضمام شبه جزيرتهم الى الدولة
العربية الكبرى . فوضع احدهم .. بول الفاروس القرطبي .. كتابا يهاجم
فيه تساهل السكان في أوروبا مع المسلمين الذين جاءوا بلادهم ، وقاده نفوره
من التمايش السلمي بين عنصرى الاندلس ، الى اتهام النبي العربي الكريم بأنه
هو المسيح الكذاب الذى تنبأ سفر « الرؤيا » بمجيئه عند نهاية العالم .
« أما خارج اسبانيا وجنوب ايطاليا ، حيث حصلت اتصالات مباشرة مع
المسلمين ، فقد كان الصليبيون هم الذين كونوا لأوروبا فكرتها الأولى عن »

والوجود قضية موضوعية • فكما أنك لا تصنعه ، كذلك فهو
لا يتوقف على احساسك وحده •• بل واحساس الآخرين بموقعه
من وجودهم •• والمجنون الذي فر هاربا من الدجاج لتوهمه أنه

= الاسلام والعرب ، ويمتطع المرء أن يتصور كم كانت تلك الفكرة عدائية
وتمييزية قاتمة ••• « •

فرانس بيكون •• اختلق على النبي ••
والمؤرخ « جلبرت » يعترف وهو يؤلف كتابا عن تاريخ النبي •• أنه
ليست لديه مصادر عربية ، ولكنه يقرر أنه « لا خوف من الكلام عن رجل
تفوق شروره أى ظلم يمكن أن نطلعه به •• »
حتى الكوميديا الالهية التي يصل لها البعض في بلادنا ، وضع دانتى فيها ،
نبينا - صلوات الله عليه - في قاع الجحيم ••

ولما هجم المغول على الدولة الاسلامية ، فكر رئيس المشائين في طلب
النجدة من المسيحيين ضد الزحف الوثني •• ولكن مطران ونشستر في إنجلترا
رد عليه : « فلتتقاتل الكلاب فيما بينها •• حتى يقتل بعضها بعضا ، كى
تقوم الكنيسة الكاثوليكية الجامعة على أنقاضها ، ويصبح العالم عندئذ ، بالفعل ،
راعيا واحدا ورعية واحدة » •

حتى لوثر قال : « الكنيسة في روما هي رأس المسيح الكذاب ، اما الاسلام
فهو جسده » •

وأندريه درير ١٦٤٧ يترجم القرآن للفرنسية ، ويعتذر عن ذلك مؤكدا أن
القارىء الاوروبى لن يتعرض لأى خطر من قراءة القرآن » •

حتى فولتير (اياه) •• ابتدع افتراءات جديدة على النبي العربى ، ولم
يظلمه احد بمقدار ما ظلمه هذا الكاتب الفرنسى « المنحور » • ما يدل على
أن المنحورين لم ينحروا من تعصبهم ضد الشرق •• هذا التصب الذي
تساوا به مع المحافظين • ولم يكن ادوارد جيبون خيرا من فولتير من هذه
الناحية • لقد كتب باعتزاز وبهجة أن حكم الشرق « البربرى » قد مضى وعهده ولن
يهدد أوروبا بعد » (عن مجلة حرار البيروتية عدد : ٥) •

الذين تفتنهم موضوعية البحث العلمى فى الغرب ، عليهم أن يذكروا أن
هذه الموضوعية لم تظهر الا بعد أن استتب الأمر للغرب ، وحقق تفوقه
الساحق ، ولم يعد يضيره أن يتامل بعين الانصاف آثار حضارات بائدة ••
أو الصفات المدهشة لكائنات منقرضة !!

حبة قمح .. رغم اقتناعه بحجج الطيب .. المجنون كان لديه سبب وجيه جدا للفرار .. عندما قال : نعم ! أنا اقتنعت بأنى لست حبة قمح .. ولكن من الذى يقنع الدجاج ؟

وأغلب الظن أن بعضا من الذين دفنوا فى مقبرة بورسعيد ، وكتب عليهم جنود الاحتلال فى ١٩٥٦ : « عشرون مسلما » .. بعضهم ليس مسلما .. وبعضهم ربما كان ملحدًا .. وبعضهم لم يدر بخاطره على الاطلاق .. أنه يواجه بريطانيا وفرنسا فى النصف الثانى من القرن العشرين بوصفه مسلما .. وهم مسيحيون ..

وبعض الذين استشهدوا كان فى ذهنهم كل حقائق المعرفة عن الصراع بين الامبريالية وشعوب المستعمرات .. ولكن من الذى يقنع الدجاج !؟

ونفس الشيء يقال عن البيانات الفرنسية التى كانت تعلن مصرع كذا من المسلمين فى معارك الجزائر ..

اذ لايكفى أن تنفض عنا عروبتنا واسلامنا ، وأن تقرر انتماءنا للحضارة البحر الابيض ، أو اننا امتداد حضارى للغرب ، أو أن الحضارة العالمية واحدة .. فنحن سواء .. شركاء فى التراث الفرنسى مع شعب فرنسا .. لا يكفى ذلك لكى يقبلنا الآخرون .. بل يتحتم أن ننقل بلادنا .. أن ندير البحر الأبيض لكى ننقل بتلك القطعة من جسم الكرة الأرضية الى هناك ولما كان ذلك مستحيلا فان التكرار لوجودنا لا يفضى الا الى الضياع .. الى العبودية للآخرين ..

وكان طبيعيا أن تلتفت مصر الى وجودها العربى المسلم ،
عندما وجدت حكومة مصرية بعد ثورة ٢٣ يوليو •

وكان طبيعيا أن تصطدم مصريكل الذين يخشون هذا الوجود،
والذين عملوا منذ أيام الحرب الصليبية على محو هذا الوجود :

اما بالقتل والابادة كما هو الحال فى اسرائيل ••

أو بتغيير الوجود : بالفرنسية كما حاولت فرنسا فى الجزائر،
لولا أن اعتصم الشعب هناك بوجوده الاسلامى ، فقهر هذا الوجود
محاولات فرنسا لافناء الوجود العربى •• وبذلك بقيت الجزائر
- وبفضل الاسلام - للعرب ولافريقيا •

أو بتدمير الأساس النفسى لوجودنا ، عن طريق الغزو
الفكرى ، بطبعنا من الخارج بالقسمات الغربية ، وتلقيننا أن الصواب
- وليس الأقوى والأفضل فقط - هو الغرب •

القبعة والردنجوت وشرب الشاي فى المساء ، وتدخين السيجار
وشرب الويسكى •• تم أسلوب الحياة الغربية فى الزواج ••
التفكير •• الموسيقى •• الرقص •• الكتابة •• الشعر •• قواعد
النحو •• السياسة •• الحب •• بل حتى العقيدة ' •

وما دام ذلك هو الصواب •• فائنا عندما نعود ونقيس وجودنا

وترائنا وتقاليدنا ، نكتشف حتما أنها لا تنطبق على هذه المقاييس ^٢ ،
وبالتالى تدينها ، ونحاول جهدنا أن نعتذر عنها ، أو أن تبرأ منها .
فنبداً من نقطة الضعف ، ونحاول أن نقلد الكمال على الجانب
الآخر . . فلا نكون على أحسن الفروض ، أفضل كثيراً من القرد
الذى يلعب الشطرنج ويأكل بالشوكة والسكين . . مهما أتقن القرد
هذه الحركات . . فان الانسان يظل طبعاً هو الأفضل . . وإذا

(١) تأمل تفتى التعبير بالصليب كرمز فى . حتى ليسجل أحد النقاد فى اعجاب
لابى القاسم الشامى انه أول من استخدم الصليب كرمز . . وكيف أن زينب
بطلة قصة « تلك الأيام » تفتى قائم عندما تفكر فى حبيبها عمر تفتح التوراة
لشقراً نشيد الانشاد !!

(٢) تأمل هذا الاهتمام المزعج بما يسمى صعوبة اللغة العربية ، والمحاولات المحيومة
التي تبذل لاستبدال حروفها . والذين يحملون هم اللغة العربية ، لا يكلفون
أنفسهم عناء البحث فى حال اللغة الفرنسية أو اليابانية مثلا . . ولا يتساءلون
لماذا لا يكتب اليابانيون بحروف لاتينية ، بل لا يتساءلون كيف استطاعت اللغة
العربية بصعوبتها هذه أن تكون لغة الكتابة وبنفس حروفها للغات أخرى عديدة
. . الفارسية . . التركية . . الكردية . . الهوسا . . السواحلى . . التركستانية
. . الإندونيسية . . كيف استطاعت هذه الحروف ان تعبر عن كل هذه اللغات
. . ويعجزها التعبير عن لسانها !!

ولا تصدقهم عندما يدعون التقديمية . ان شو اين لاي يرفض اقتراحا
بالكتابة بالحروف اللاتينية ، رغم صعوبة اللغة الصينية المذممة وحجة
شو اين لاي الشيوعى اليسارى هي الحرص على التراث الصينى . . فتأمل (!!)

كان حتماً أن يبقى قرد وانسان .. فخير للقرد أن يبقى قرداً
مكتمل القرودية ، سيداً في غابته ، من أن يتحول الى مسخ ، يقلد
الانسان ليضحكه في السيرك .. فما بالك لو أصر الانسان على
تقليد القرد ليصبح في جماله ورشاقته وسمو حضارته .. لمجرد
أن دورة التاريخ قد جعلت هذا القرد أكثر رفاهية ..

خلاف حضارى

وهنا يثور سؤال .. هل هناك خلاف حتمى بين حضارتنا ،
وبين الحضارة الغربية .. أما من سبيل لوجود حضارة انسانية
واحدة .. تتمثل كل الناس ويتعايشون في ظلها ؟!

التجربة والتاريخ تؤكدان أن مثل هذه الوحدة الانسانية لم
تتحقق أبداً ، والطريق بعيد اليها .. فلم توحد البشر لا الفتوحات
ولا الديانات .. ومنذ أن كان الشرق والغرب .. وهما في صدام ..

ولا بد قبل أن نشير الى مظاهر الخلاف الحضارى بيننا وبين

الغرب الصليبي .. أن نؤكد أن حديثنا يدور حول المسيحية الغربية ،

باعتبارها وجوداً حضارياً ، فلسفة حضارية معادية ، لا كدين ، ولا

علاقة لها بمسيحية الشرق .. التى تكون جزءاً عضوياً من تاريخنا

وحضارتنا ومكونات وجودنا .. وأنا أعتقد - رغم اعترافى بعدم

تعمقى - أن الخلاف بين كنيسةنا المصرية وكنيسة روما .. هو

في حقيقته وجوهه •• خلاف حضارى •

والفرق الحضارى ليس خلافا فى الآلات •• فالناس جميعا يديرون الآلات على نحو واحد •• والصناعة اليابانية لا تختلف عن الصناعة الأمريكية اختلافا يبرر تميزها •• انما يختلف الناس حضاريا باختلاف نظرتهم للوجود ، وما يتفرع عن هذه النظرة : نظرتهم للانسان سيد هذا الكون ، وعلاقة هذا الانسان بضميره •• أو ربه •• وأهم من ذلك ، أو ربما نتيجة لذلك ، علاقة الانسان الفرد بالانسان الفرد •• الحب والزواج •• الأبوة والأخوة •• القبيلة •• الشعب •• اللون •• الجنس •

لذا فنحن عندما نتحدث عن حضارتنا نعنى الاسلام •• حتى ولو كان لنا امتداد عربى قبل الاسلام •• ورغم اعتزازنا بأطلال

(١) اخبرنى كاتب يابانى جاء لزيارة القاهرة فى مؤتمر الكتاب الافرو آسيويين انه لاحظ ان تماثيل المسيح وصوره فى المتحف القبطى لا تحمل دماء •• بمكس تماثيل المسيح وصوره فى كنائس الكاثوليك •• وقال ان نفس الشيء يميز الايقونات المسيحية فى اليابان ، لان الشرقيين - على حد قوله - يكرهون حمل الدماء • وقال الكاتب اليابانى ، انه يؤلف رواية تاريخية عن دخول المسيحية الى اليابان ، وثبت فيها أن المسيحية فى اليابان تحولت الى لون من البوذية • وأود أن أثبت هنا ملاحظة ذكية للأستاذ « حسين فوزى » فى كتابه « سندات مصرى » رغم اعتراضى التام على روح الكتاب •• الملاحظة هى أن المصريين قد رفضوا القول بطبيعة مزدوجة للمسيح •• فقال المصريون الاقباط بطبيعة واحدة الالهية ، وقال المصريون المسلمون ، بطبيعة واحدة بشرية •• فتأمل كيف نتفق - مسلمين ونصارى - فى وجهة النظر ولو من دينين •• ضد الفهم الأوروبى •

الحضارة الفرعونية أو السبائية أو الفينيقية .. وبذلك الشعب الذى عاش على نفس الارض من آلاف السنين .. الا أن الأمر لا يخرج عن دائرة الاعتزاز .. لأننا لسوء الحظ لا ندرى شيئاً متكاملًا عن علاقاته الانسانية ، ولا يمكن أن نحدد خصائص حضارية على تخمينات واستنتاجات ، وقراءات قريبة من المعنى لكتابات ممزقة .

لم يكن للعرب حضارة متكاملة الا بظهور الاسلام ، ولم تمتحن حضارتنا الا بعد أن خرجت من الجزيرة الى ميدان التطبيق بين كافة الأجناس البشرية المعروفة .. واجتازت التجربة بنجاح .

الاسلام هو التراث الحضارى للعرب .. مسلميهم ومسيحييهم^١ . والتراث الاسلامى ، هو الحقيقة الأولى فى حديثنا عن التراث المشترك كاحدى مكونات الأمة العربية^٢ .

وتعالوا نضع أيدينا على بعض خصائص حضارتنا .. بقدر ما يسع غير المتخصصين :

الانسان المسلم .. يؤمن ايمانًا مطلقًا بالتوحيد .. فالتوحيد هو جوهر الاسلام .. وفيه وصل الى أكمل صورته .. الله فرد

(١) أشد معارضى هذا الرأى هو حزب البعث .. ولكنى عثرت على نص من منشور انتخابى قديم (٢٠ سنة) لمشيل عفلق حسبى أن استشهد به هنا : « نريد أن تستيقظ فى المسيحيين العرب ، قوميتهم ، يقظتها النائمة .. فيروا فى الاسلام ثقافة قومية لهم . يجب أن يتشبثوا بها ويجيئوها ، لأنه متصل بطبعم وتاريخهم » .

(٢) نورد هنا كلمة وليم مكرم عبيد الخالدة « أنا مسلم وطانا نصرانى دينا » .

صمد •• والانسان انسان •• لا تشوب الهية الله شائبة •• وما من
بشر له على الناس فضل من ألوهية •• والانسان المسلم •• يبدأ
حرا •• طاهرا •• خيرا^١ •• لأنه يولد مسلما •• بمجرد الميلاد •
حتى أولاد النصارى واليهود •• يولدون مسلمين : « ما من مولود
يولد الا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه^٢ » •

اذن فالفطرة خيرة •• والناس يولدون على الفطرة •• وهم
ليسوا بحاجة الى اجراء خاص يدخلهم فى عداد المؤمنين حتى يبلغوا
سن الاختيار •• فيمارسوا شعائر الاسلام •

وفى المقابل نجد أن الحضارة الغربية تؤمن بأن الناس يولدون
على الجانب الآخر •• يولدون خطاة ، ولا بد من تعميدهم لكي
يتطهروا • ومن مات قبل أن يعتمد لم يمت على الهدى •• لا بد
اذن من تدخل البشر ، وقبل حرية الاختيار ••

وعندما نموت نحن المسلمين •• فالأفضل أن يقول المرء
الشهادتين مؤكدا اختياره ••

وفيما بين الميلاد والحياة تمضى حياتنا لا خضوع فيها لانسان
مهما كان ، ولا واسطة بين الرجل وضميره •• أى ربه •• ولا
اذلال لهذا الضمير يكشف ضعفه أمام انسان آخر •• بل نستطيع

(١) من وجهة نظر المسلمين •

(٢) حديث شريف •

أن نخطيء وأن تتوب بيننا وبين ضميرنا سبعين مرة في اليوم الواحد •• فيغفر الله لنا •

وعندما تنزوج فنحن نفعل ذلك بإرادتنا ، وفيما بين الرجل والمرأة لادخل لثالث بينهما الا لحفظ حقوق الطرف الضعيف وصيانة مستقبل الأولاد •• واذا شاء الزوجان الانفصال فأمرهما بيدهما وحدهما •

علاقات انسانية • وانسانية فقط ، تستمد قدسيتها واحترامها من ارادة الانسان الحرة •

وكلها عقود على الأرض تعقد ، وعلى الأرض تبقى أو تنفصم •• والانسان ليس عبدا لقرار يتخذه ، أو لخطيئة منذ ملايين الأجيال •• فما يعقده الانسان ، هو الذي يفصمه •• وما يرتكبه ، هو ما يحاسب عليه •• ان شاء كفر وان شاء آمن •• على شرط أن يتحمل مسؤولية قراره •• لا اجبار على الدخول في طاعة الله •• فلا اكراه في الدين •

والناس بعد ذلك سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي •• يؤذن لصلاتهم بلال الأسود •• ويخطط لحربهم سلمان الفارسي •• ويقود جيشهم العبد السابق زيد ثم ابنه أسامة •

والأقلام الصليبية لا تكف عن « الزن » حول قضية الرق في الاسلام •• يتبعهم في « زنهم » بعض المسلمين •• ناسين أن الرق

لم يمح بقانون من أمريكا بلد الحريات الا منذ قرن واحد فقط ••
ناسين أن سفن أوروبا الكاثوليكية قد نقلت الى أمريكا البروتستنتية
٣ ملايين عبد من أنجولا وحدها ! •• اختطفوا بكل ضروب
الخداع والارهاب والوحشية •• لياعوا في أسواق الرقيق وبورصة
العبيد في العالم الجديد •• ارض الحرية والمساواة •

لماذا تسمى عيونهم عن تجارة الرقيق على بعد مائة عام ،
ويذرفون الدمع على وجود رقيق منذ ١٣ قرنا ؟!
لقد كان الرق ظاهرة اجتماعية ، مارسه وثيون ومسيحيون
ومسلمون •

ولم يبلغ الا بقيام الظروف المادية التي تكفل وتحتم الغاءه ••
ولكن موقف الاسلام منه أنصع من أن يلطخه السخام الصليبي •
النبي قدوة المسلمين لم يكن له جوار ولا عبيد ، بل حرر
عبده وتباه ! لولا أن نزل القرآن ينهى عن ذلك التبنى •• لأن
نسبة المرء الى أبيه - ولو كان عبدا - أشرف له ، وأحفظ لانسانيته ،
من أن ينسب ولو الى محمد رسول الله •

والمقوقس النصراني ، عظيم القبط ، أهدى النبي جارية ،

(١) يقول جيمس ديفي في كتابه « البرتغال في افريقيا » حتى ١٨٢٢ كانت تجارة
العبيد تصل ٨٠٪ من مجموع تجارة أنجولا •• ويؤكد أن هذه المستعمرة
البرتغالية لم تفق بعد من آثار هذه التكبئة التي ابتلست بها ، والتي سلبتها
على أقل تقدير ٣ ملايين من شبابها بعوا في أسواق العبيد في الامريكيتين •

فأعتقها الرسول ، وتزوجها ، وولدت له أحب بنيه اليه والى المسلمين
•• سيدنا ابراهيم •• الذى لو عاش لكان جدا لأحفاد نبينا ••
والذى يوم مات ظن المسلمون أن الشمس قد كسفت لموت ابراهيم
ابن مارية القبطية الجارية •• التى ظل المسلمون يصلون عليها
وسيظلون •• دون أن يغيروا حتى اسمها •• أو اخفاء دينها
الأول ١ •

لا حاجة الى تعداد كل ما فعله الاسلام لتحرير العبيد ••
فنحن لا نرد على متعصب •• ولكن يدهشنا أن يثير هذا الحديث.
من يدعون الايمان بتفسير مادي للتاريخ • ويعرفون أن وجود نظام
الرق كان مرحلة ضرورية، لا يمكن الغاؤها بظهور النظام الرأسمالى.
وحاجته الى العمل الحر ••

والمقارنة بين انسانيات الحضارات ، هى فى معالجتها للضرورة
التاريخية ••

بين بعثات أوروبا التى كانت تجرى تعميده الرقيق بالجملة عند
شاطئ المحيط الأطلسى •• والتى كانت تؤمن أن خير طريق لهداية
الزنجى هو بيعه ليعيش فى مجتمع مسيحي ٢ •

(١) ما أجمل لمن المساواة والسماع نردده صبية لا نفقه شيئا فى الفلسفات •••
ونحن لا نزال بعد فى الكتاب •• ولا أدرى أما زال أطفالنا يحفظون « أولاد النسي
على الله عليه وسلم سبعة •• ثلاثة ذكور •• وأربع اناث •• وكلهم من
السبعة خديجة الا ابراهيم •• من مارية القبطية » •

(٢) البرنغال فى افريقيا للكاتب الأمريكى « جيس ديفى » •

وبين حضارة كانت ترى في عتق الرقبة خير الفضائل •
ونظرة المجتمع الاسلامى الى العبيد تختلف تماما عن نظرة
المجتمع الغربى ، فهى علاقة قانونية ، قد تنتقص من أهلية الخاضع
لها ، ولكنها لا تغير آدميته أبدا ••

فى أمريكا اليوم يرفض الطلبة البيض أن يجالسوا أحزاب
الزنج •• وينسفون الكنائس التى يدخلها أطفال سود • ولكن
شيوخ المسلمين لم يرفضوا منذ ألف سنة أن يقود جيشهم عبد ،
وأن يتلقوا دينهم من عبد •

تأمل أوزيجان عندما يتحدث عن العاهرة الأوروبية ترفض
مراقبة « العربى » •

ولكن بنت عمه رسول الله تزوجت عبده زيدا ، ويطلقها زيد ،
فيتزوجها رسول الله ••

والعبد يستطيع أن يكون سلطانا لمصر •• فاذا أراد فقيه أن
يضع حدا لاستبداده •• نخب فى أوراقه الشخصية ومستنداته
القانونية •• ليقيم عليه الدعوى بأنه لا يزال عبدا لم يتحرر بعد ،
رغم توليه عرش السلطنة !!

تأمل مغزى هذه القضية الشهيرة •• فلم يقل المسلمون ••
كيف يحكمنا عبد •• بل كيف يحكمنا عبد لم يتحرر ؟ ••
وتأمل أبا بكر يشترى بلالا ويعتقه •• فيقول عمر بن الخطاب :

« أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا » •• بلال العبد الأسود بإسلامه
وتقواه سيد عمر بن الخطاب •• أمير المؤمنين •• الفاروق •• ثاني
الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم جميعا •
لا علينا ••

ان ايمان الاسلام المطلق بالمساواة بين البشر •• كان السبب
الأول في انتشاره في آسيا وأفريقيا •• حتى سموه دين الملونين •
والمتبع لثورات أوروبا يجدها كلها محاولة للحقوق بالاسلام •
البروتستنتية ، كما يجمع العارفون ، كانت نتيجة الاتصال
بالعالم الاسلامي خلال الحروب الصليبية •• وهي في جوهرها
- أو في بدايتها - محاولة لتحرير الأفراد من سيطرة الكنيسة
ليصبحوا كالمسلمين •• حيث لا كنيسة ، ولا كهنوت ، ولا صكوك
غفران •• ولكن البروتستنتية تحولت الى كنيسة بدورها •• ثم
كانت الثورة الفرنسية •• الغاء للكنيسة بل وللمدين •• الذي بدأ
أنه لا سبيل الى فصله عن الكنيسة وسطوة الكاهن •

ودعت الثورة الفرنسية الى المساواة •• واذا ما صرفنا النظر
عن التفرقة الاقتصادية ، فلا جدال في أن الثورة الفرنسية ، وما
أعقبها من ثورات بورجوازية ، قد حققت المساواة بين أبناء المجتمع
الغربي • ولكن هذه المساواة كانت على حساب الانسان غير
الأوروبي •

(١) ألغت الديمقراطية في أوروبا الانقلاب • والاسلام لم يعرف الانقلاب •• وأول =

وهنا تصطدم بظاهرة لم تعرفها حضارتنا ، ونعني بها « ازدواج الضمير » •

وهو ذلك الذي يجعل مواطنا صالحا ورجلا فاضلا ، لا يخالف القانون ولا يرضى بالاعتداء على الحريات، ويشور بل يحمل السلاح اذا سمع أن حكومته قد اعتدت على متهم من مواطنيه ، أو عذبته لاتزاع اعتراف منه ، ويضحى بحياته متطوعا للقتال مع اليونانيين الثائرين ضد الظلم التركي ، ويؤمن أن المتهم بريء حتى تثبت أداته¹

هذا المواطن الذي لا ينام الليل اذا سمع باعتداء على الحريات في لندن وباريس وروما •• ما ان يركب البحر ، وينتقل جنوب أو شرقا ، حتى يستحيل الى وحش كاسر ، ويخترع من أفانين العذاب ، والأضطهاد الفردي والجماعي ، ما تعجز عنه أقى الوحوش ، وما يفوق عهد البربرية •

• ما ظهرت مع الأتراك . ولكنها كانت رتبا عسكرية ولا نور •• ولا يزال الغربيون الذين يأتون الى بلادنا يفنون حائرين امام ما يسمونه فوضى الاسماء •• واختفاء ما يعرف باسم عائلة •• وأتاتورك عندما أراد أن يتفرنج نص على ضرورة حمل اسم عائلة •• الاسلام لم يعرف ذلك لكي لا تتوارث الامتيازات الطبقية •• فالمرء باسمه وفعله ••

(1) تأمل المبدأ الاسلامي •• « ادراوا الحدود بالشبهات » قبل ظهور مبدأ : « المتهم بريء •• الخ » باننى عشر قرنا •• وخلال قرون رهيبية ، كان المبدأ القانونى من أوروبا •• المتهم مذنب حتى تثبت براءته •• فى هذه الأيام كان الاسلام يأمر المحقق بتلمس البراءة للمتهم بالشبهات •• انه أم القاعدة القانونية « الشك يفسر لصالح المتهم » •

جيش نابليون •• أبناء الثورة الفرنسية التي أعلنت الحرية
والإخاء والمساواة •• نهبوا وسرقوا وضربوا وعذبوا المتهمين في
مصر •• وأعدموا سليمان الحلبي على الخازوق •• وقتلوا الأسرى
المسلمين في يافا حلاً لمشكلة تغذيتهم والمواصلات !

وإذا كان المرحوم «محمد صبحي وحيد» في كتابه ، الذي
يمثل قمة التأثير بالغزو الفكري، يدهش لأن مشايخ القاهرة قد ألقوا
بكل احتقار الشارة المثلثة الألوان ورفضوا تعليقها على صدورهم ،
وهي التي كان أحرار أوروبا يتخاطفونها •• على حد قوله •

فأنا لا ندهش ولا نعجب ، بل نفهم ونكبر موقف شيوخ
الأزهر •• فماذا تعنى لهم شارة فرنسا •• حرية •• إخاء ••
مساواة ؟ الإخاء والمساواة في الإسلام •• لا يطاولهما نظام آخر إلى
يومنا هذا •• والحرية ينتهكها حملة الشارة بأفطع مما فعل التتري ••

وثوار فرنسا أبناء مقتحمي الباستيل ، بل هم بأشخاصهم الذين
خرجوا من خلف المتاريس بعد أن أسقطوا شارل العاشر •• ماذا
فعلوا في الجزائر ؟

البعض يحلو له أن يفرق بين فرنسا الثورة •• وفرنسا التي
تحولت بعد ذلك إلى دولة استعمارية •• ونحن نرى أن هذه التفرقة
لا محل لها ، فيما يتعلق بنا شعوب الشرق •

فرنسا الثورة •• رأيها في مصر •• ورأينا كيف نكل نابليون

محرر أوروبا •• بشعب مصر عند ما ثار من أجل الحرية •
وفرنسا ثورات ١٨٣٠ هي التي احتلت الجزائر ، وفكتت
يشعبها ، وطاردت مساجده وحوادثها لكنائس •

لذا فعندما يتغنى كاتب غربي بحرية واخاء ومساواة أوروبا فهو
لا يطربنا •• أما عندما يتغنى بها كاتب عربي ، فاننا نحس مرارة
الجرح في قلوبنا •• لقد جربنا من هذه الحضارة وفي أرقى
عصورها ألوانا من القسوة والتكيل •

ومع ذلك فليست القسوة ولا التكيل ، هي ما نعترض عليه
هنا •• فكل الحضارات قد عرفت التكيل ، ومارست الاضطهاد ••
ولكن الصفة المميزة ، التي تفرق بينا وبين الحضارة الغربية ••
هي ازدواج الضمير •• النابع من ايمان حتى النخاع بأن الناس
ليسوا سواسية •• وأن ضربة السوط فوق ظهر الأبيض تؤلم ولكنها
على ظهر الآخرين تهذيب واصلاح !

في حضارتنا •• قامت حكومات استبدادية ، وقتل الناس
بعضهم بعضا ، ودموا السم حتى لاختوتهم •• ولكن ذلك كله لم
تشبه شائبة من التفرقة العنصرية أو العرقية •• لم يكن هناك من
يرى أن قتل الأسود تحضر •• أو أقل بشاعة من قتل الأبيض ••
أو أن الجريمة في القاهرة مباحة •• ومحرمة في دمشق •

(١) راجع باب الاسد والشغير الناسك لابن المقفع •

المساواة التامة حتى أمام الارهاب الوحشى .

هذه المساواة بين الأجناس العديدة والقوميات والألوان المتنافرة التى كونت المجتمع الاسلامى ، والتي سمحت لكل متفوق بأن يطمع ويتطلع الى الصدارة ، دون اعتبار للونه أو جنسه . . هذه المساواة هى التى جاءت الشيوعية تحاولها باسم العالمية . . باسم الأممية . . لا فرق بين لون أو جنس أو عرق . . كلمة « سوفيتى » تجب كل ما سبقها ، كما كانت كلمة « مسلم » منذ أربعة عشر قرنا . . ولكن هل وصلت الى ما وصل اليه الاسلام فى هذا المضمار؟! ما زال الوقت قصيرا . . والنتائج أقل من أن يستند اليها وحدها .

نتقل الى سؤال جديد . . هل ما زالت أوروبا عند صلييتها . . أم أن الصليية انتهت بانتهاء الحروب الدينية . . أذكر أن سلامه موسى كان ينفى القول المشهور عن النبي . . يوم دخل القدس وقال « اليوم انتهت الحروب الصليية » وحجة سلامه موسى ، هى أن النبي كان عضوا فى جمعية الحادية . . ولا غرابة . . بل ان ذلك يؤكد وجهة نظرنا . . فالدين قضية وجود . . لا تدين . . وحرب الغرب ضدنا ليست حربا لأهداف دينية^٢ ، بمعنى أنها

(١) راجع كتاب الماركسية والغزو الفكرى .

(٢) مورفيد نفسه يقول فى كتابه « النيل الابيض » وهكذا ترى أن المسيحية قد تسلمت الى وسط أفريقيا فى حماية المسلمين الذين رحبوا بالمبشرين ، كرفاق متدينين يواجهون معا بربرية افريقيا . . وليس قبل السبعينيات فى القرن التاسع عشر عندما تنهبوا الى الدمار الذى يصيبهم على يد المسيحيين وكانت =

رسالة هدى ، ومهمة تبشيرية ، كما يصورها الغرب .. انها حرب للسيطرة ، للاستغلال ، لتحقيق التفوق وضمان استمراره .. ومع ذلك فهي حرب صليبية .. تعادى الاسلام والمسلمين ، لأن المسلمين هم عدو الحضارة الغربية .. ولا أشك أن من يعادى الاسلام ، ويقتل المسلمين ، مضطر لأن يرفع شعارات الحرب الصليبية .

صحيح أننا نعلم أن التمييز العنصرى ، فى جنوب افريقيا ، أو فى أمريكا - ليس فى حقيقته قضية لون ، بقدر ما هو استغلال ، وحالة تمكن البيض من الحصول على امتيازات أكبر .. ورغم ذلك ، فنحن نسميها حربا عنصرية .. ولا يمنعنا ادراكنا لحقيقة الدوافع .. من تسمية الصراع نفسه .. ونفس الشيء بالنسبة للحرب الصليبية .. أوروبا كانت تحركها الصليبية عندما جاءت تتزع بيت المقدس أيام ريتشارد ولويس القديس الذى حوله المصريون الى سنط الوز .

وهي أوروبا الصليبية التى أبادت الاسلام والمسلمين من اسبانيا فى سنوات .. بينما ترك المسلمون الأديان الأخرى قرونا .. حتى جمعوا جمعوعهم .. ومحووا كل ظل للاسلام .. والتى اعتبرت

= ثورة عرابى وثورة المهدي ، ومطاردة المبشرين فى يوجندا هى نعمة هذا الادراك .
(1) فى قرطبة وحدها .. كان أربعمائة مسجد .. وليس فى اسبانيا كلها اليوم مسجد واحد !! قرنسا الثورة .. والحرية والاخاء حولت مساجد الجزائر الى كنائس .. وعمر بن الخطاب فى القرن السابع .. يرفض الصلاة فى الكنيسة حتى لا ينتزعها مسلمون متعصبون من بعده ويقولون «هنا صلي عمرا» =

اكتشافها لطريق رأس الرجاء الصالح تطويقا للإسلام ، وهي أوروبا التي يصفها عمار أوزيجان في كتابه « الجهاد الأفضل » • هي أوروبا التي يروى « يوسف الرويس » الزعيم التونسي « أن الفلاحين في جنوب فرنسا كانوا يغلقون بيوتهم في ١٩٥٦ ، ويفرون الى الشمال خوفا من المسلمين الزاحفين »

•• ولكن هل لا زالت أوروبا عصر النهضة •• والفضاء والصواريخ عند صليبتها!؟

لنسمع هذه الشهادة ••

الشاهد هنا هو «عمار أوزيجان» وزير الزراعة الجزائري ••
الثائر الاشتراكي ، الذي يتحدث وخلفه تاريخ ثوري •• يخرس
ألسنة المكابرين •• وبين يديه نصر لا يقبل التأويل •• هو الجزائر
العربية الاشتراكية المسلمة •

« عمار اوزيجان » الذي بدأ حياته الثورية ماركسيا شيوعيا ••
يصل من خلال الثورة الى روح الاسلام ، والى الوجود الاسلامي
•• وهو يتحدث في كتابه الخالد « الجهاد الأفضل » عن تاريخ
فرنسا في الجزائر ، ومحاربتها الدين يقول :

= وترفض بريطانيا في عصر الفضاء فتح مسجد ثان في لندن • بينما لا زالت
الكنائس والمعابد في قلب الوطن الاسلامي منذ أربعة عشر قرنا • بل وتفتح
الكنائس حيث لا مسيحي واحد •• تلك هي روعة حضارتنا •

«ان العدو الاستعماري كان أكثر ذكاء حين كان يهدم الجوامع ويحولها الى مكبات أو اصطبلات » *

« كان الدين الاسلامي وثاقا يمتن اتحاد مختلف العناصر في القوة الشعبية التي تزخر بها بلادنا » *

« لن نشدد الكلام على الروح الصليبية التي تجلت في تحويل الجامع الى كنيسة ، واقامة الأنصاب التذكارية يعلق عليها الصليب الحديدي ، فوق العبارة اللاتينية (الصليب ينصرک) * ولن نشدد على شعارات المدينة ، كشعار مدينة الجزائر الذي انتشر في العالم كله بواسطة الطابع البريدي الذي رسم عليه صليب ضخيم في السماء ، متصرا على هلال صغير منكس فوق البحر » *

لا أدري كيف لا نغضب لهلالنا .. ما دام تنكيسه يرمز لانهيار وجودنا ، ولخضوعنا لسيطرة المحتل الأجنبي .. وهل التقديمية أو الثورية أن نساهم مع المحتل في جذب هذا الهلال الى أعماق البحر .. أم في رفعه الى عنان السماء !؟

نعود الى سماع شهادة أوزيجان :

« لم تكن كاترين الثانية الروسية تجهل تأثير هذه القوة الجذابة على النفوس ، حين تناولت على سلطة البابا بيوس السادس ، فحددت الابريشيات وأنشأت كرسيا أسقفا عهد به الى كاهن بسيط يمارس

السلطة على جميع الكاثوليك في دولتها •• ولم تكن تجهل أيضا
تواشج الاسلام والحياة الاجتماعية حين أعلنت الحرب على دين
محمد •• الذي تدين به بحماس شعوب آسيا الوسطى^١

« كان الوعي القومي في قرنه فكرة الوطن بالعروبة وبالاسلام
الذي عاد عاملا من عوامل التقدم ينمو ويزداد سموا وقوة^٢ »

انتهت شهادة عمار أوزيجان •• وله أقوال أخرى ••

أليس من الطبيعي في بلد كان احتلاله في مفهوم فرنسا ••
فرنسا سقوط الباستيل ، وفولتير ، وروسو •• فرنسا الحرية والاخاء
والمساواة •• فرنسا هذه فهمت احتلال الجزائر على أنه نصر للصليب
على الهلال •• أليس من الطبيعي أن يكون أول لحن جزائري بعد
التحرير هو :

مبروك يا محمد عليك

الجزائر رجعت اليك

ما بين طابع البريد بصليبه المنتصر •• وبين اللحن المسلم ••
قصة صراع يقول الن مورهد •• « انه لن ينتهي •• »
ونستدعي « الن مورهد » للشهادة ••

(١) ص ٢٤ •

(٢) ص ٣٦ •

الن مورهد ، كاتب أمريكي أشهر من « فرنسوا ساجان » ..
ومؤلفاته تطبع فور صدورهما بجميع اللغات الحية .. ومؤلفاته تدور
حول فتح أفريقيا « النيل الأبيض » و « النيل الأزرق » وتقام ضجة
حول هذه المؤلفات وصل صداها الى بعض صحفنا .. والمؤلفات
ياختصار ليست الا لونا من أدب الأساطير (العلمية) التي تتغنى
بأمجاد وفتوح الصليبيين ضد الاسلام والمسلمين .. كقصص الظاهر
بيرس مثلا .. مع الفارق .. ان قصص الظاهر بيرس كانت تذكى
حماس المسلمين ضد الغزو الأجنبي .. بينما تذكى ملاحم «مورهد»
حماس الغزاة المحتلين للاستمرار فى استعمارهم ، وفارق آخر أن
قصص الظاهر وضعت من سبعة قرون .. أما قصص « مورهد »
فتوضع فى ١٩٦٠ .. والدافع اليها هو استقلال أفريقيا .. وارتباط
هذا الاستقلال بانتشار الاسلام دين المساواة .. وان كان الكتاب
الصليبيون يخدعون جاهيرهم ، بزعم أن سر هذا الانتشار هو تعدد
الزوجات ! ..

الأفضل أن نسمع شهادة الصليبي الن مورهد .

تحت عنوان « تمرد المسلمين » .. يحكى عن ثورة عرابي ..
وثورة المهدي !! وفى ملحمة غوردون البطل المسيحى ينقل عنه أنه
كتب لصديق له حول اسلام «سلاطين» عندما وقع فى أسر المهدي :

(١) يقول المؤلف أن الذى اقترح عليه تأليف الكتاب هو الحاكم العام البريطانى
فى أوغندا .. وأنه راجعه مع حاكم تنجانيقا والسفير البريطانى فى السودان

ليس بالأمر الهين .. لأوروبي أن ينكر ديننا خوفا من الموت^١ .

« كان لدى غوردون ما يقوله عن التناقض بين المسيحية والاسلام فى الشرق الأدنى .. : « ان الخطر الذى يجب أن نخشاه .. ليس زحف المهدي شمالا عبر وادى حلفاء .. بالعكس .. انه لأمر بعيد الاحتمال أن يتجه شمالا .. ان الخطر من طبيعة مختلفة تماما .. انه ينبعث من وجود قوة محمدية^٢ متصرة عند حدودكم .. الأمر الذى سيثير الشعوب التى تحكمونها .. فى كل مدن مصر سيقوم احساس بأن ما فعله المهدي يمكن أن يفعله المصريون .. وكما طرد الدخلاء والكافرين يمكنهم أن يفعلوا نفس الشيء .. وليست انجلترا وحدها التى ستواجه هذا الخطر .. ان نجاح المهدي قد أثار المخاطر فى الجزيرة العربية وسوريا .. »

« ان العداء للمهدية فى أوروبا كان عميقا جدا .. كانت أوروبا تحس أن العقيدة المسيحية نفسها تواجه تحديا من هؤلاء القتلة المتعصين فى السودان^٣ .

(١) ص ٢٣٤ .

(٢) الغرب يسمينا « محمديين » لأنه يتهمنا بعبادة محمد ولا يلقبنا الا بالوثنيين .. الوثنية وعبادة الانسان الذى يتحول الى اله .. متأصلة فى الانسان الاوربي .. بينما ينزع الشرق .. والعرب خاصة .. الى التوحيد .. فنحن مسلمون ، ومعنا النصارى كما يسمون فى الشرق العربى .

(٣) وكاتوا يلقنونا فى مصر والسودان .. ان ثورة المهدي قام بها تجار الرقيق احتجاجا على إلغاء الرق .. وضد الاستبداد المصرى ..

« أقام المهدي ما يشبه فردوس محمد : حديقة باردة * *
ونساء جميلات ، وفي الليل تدخل في حوريات خيمته * *
وقد فهم أنه ما من حورية يحق لها أن تتضايق من وجود
الأخريات * * »^١

ويتهيء فصل « التمرد المسلم » بهذه العبارة « الصراع بين
الاسلام والمسيحية لم ينته * فقد كانت هناك جماعة أوروبية لاتزال
مسيطرة على منبع النهر * * وكانوا مصممين على ألا يسقطوا » *
ويقول « في نهاية ١٨٨٣ كان يمكن القول بأن الصراع بين
الاسلام والمسيحية قد وصل الى نتيجة مشرفة للطرفين ، فقد استولى
الانجليز على مصر ولكنهم خسروا السودان *
والفصل التالي عنوانه « النصر المسيحي »^٢ *

ويقول مورهد : « لقد انتهت هذه القلاقل (ثورات عرابي
والمهدي) كما رأينا بالهزيمة الساحقة للاسلام على ضفاف النيل (!)
ولكن ثبت انها هزيمة مؤقتة ليس الا * * ومنذ سنة ١٩٠٠ وهناك

(١) ان مورهد يعرف كل شيء عن الاسلام * * ولكن هذا السخف للاستهلاك
الصليبي في الغرب .

(٢) بعض صفار الأساتذة الذين تعلموا التفسير المادى للتاريخ حديثا يستنكرون
علينا أن نقرأ التاريخ دينيا * * فما رأيهم في أستاذ مثل مورهد ،
يؤرخ ثورات افريقيا في القرن التاسع عشر وفتحها تحت عناوين « التمرد
المسلم والنصر المسيحي » وذلك في كتاب صادر في ١٩٦٠ ١٩ بل ويصف غزو
فرنسا لتونس في ١٨٨١ على أنه انهيار لحقل حصين من صاقل الاسلام في أفريقيا!

تقدم منتظم للإسلام فى شرق ووسط أفريقيا •• وفى الوقت الحاضر يكسب المسلمون مؤمنين جديدا أكثر من المسيحيين •• كما قال « رولاند اوليفر » انهم يكسبون السباق •• وأوغندا تعتبر الآن مسيحية •• ولكنها مستقلة قريبا (!) وكل من مصر والسودان تحت حكم مسلم • لذا فما من رجل عاقل ، يفامر بالقول بأن ذلك هو نهاية الأمر •• التناقض بين الدينين •• الشرق ضد الغرب •• يبدو كأنه جزء دائم من الواقع الأفريقي ، وهذا الصراع يمضى أحيانا تحت الأرض ، وأحيانا فوقها •• ولكنه مستمر ومحتوم كالنيل نفسه « ١ » •

انتهت شهادة ألن مورهد •• فى كتابه النيل الأبيض ،

نستمع الى شهادة مجلة التايم الأمريكية عدد ١١ يناير سنة

١٩٦٢ تحت باب الدين ••

كتبت المجلة : « الانتشار السريع الذى يحققه الإسلام فى أفريقيا اليوم ، ظاهرة لم يسبق لها مثيل منذ أن نشر المحاربون العرب بحد السيف عقيدة محمد عبر ثلاث قارات •• وفى القارة المظلمة اليوم مائة مليون مسلم ، ولكن تعاليم محمد البسيطة تضيف اليهم ٩ ملايين مسلم جدد كل عام ، أى تسعة أضعاف ما تكسبه المسيحية •• ومع انتشار الإسلام تنمو أحلام الوحدة الإسلامية ••

(١) ص ٣٧٦ •

امبراطورية ناصر .. التي يسعى لها المجلس الاسلامى الخاضع
لاشراف الحكومة المصرية ، والذي يعد احدى المؤسسات التبشيرية
الكبرى فى العالم .. وينذع المؤتمر من اذاعته القوية رسالة القرآن
لمدة ١٢ ساعة بثمانى لغات يوميا .. ويقدم ١٣٠٠٠ منحة دراسية
لشباب المسلمين فى الجامعات المصرية .. ويرسل مصاحف للقادة
فى أفريقيا وآسيا ومنهم جومو كينياتا الذى تلقى أخيرا مصحفا فاخرا
مع رسالة رقيقة من عبد الناصر .. ومطابع المجلس الاسلامى التى
لا تكل تفرق أفريقيا بنسخ رخيصة من القرآن الكريم ..»

بالطبع .. لا يهنا مدى الجدية فى اتهامات التايم ، بقدر
ما يهنا أن هذه هى الفكرة التى تقدم للمسيحى الغربى لاثارة
حماسه ، وكسب تأييده ، لمقاومة استقلال افريقيا ، والوقوف فى
وجه القاهرة التى تنشر الاسلام وتسعى للوحدة الاسلامية ..
وعندما تعتمد مجلة مثل « التايم » الى التهويل والتهويش .. فان
الأمر خطير .

وشاهد آخر :

لويس لوماكس .. وهو للأسف زنجى أفريقى ، ولكنه باع

(١) سيدهش التقدميون .. المتمدتون . عندما يعلمون أن كبرى المجلات الأمريكية
مثل « التايم » بها باب دائم عن الدين .. بينما يخجل الواحد منهم أن
يستشهد بأية قرآنية .. ويعير غالى شكرى عبد الحميد جوده السحار بصد
الآيات القرآنية فى قصصه ١.

قلبه وضميره للاستعمار الغربي .. أجداده خطفوا من أفريقيا ..
وأجرى تعميدهم كما يصف « جيمس ديفى » على هذا النحو :
« لم يكن هناك متسع من الوقت لأجراء الطقوس المسيحية ، فكان
يجرى تعميدهم بالجملة عند الشاطئ ، قبل أن تجرهم السلاسل الى
السفن المبحرة الى العالم الجديد .. لضمان الخلاص لأرواحهم ..
الشيء الوحيد الذى لا يباع .. » ولكن لوماكس يعتبر نفسه جزءا
من الحضارة الصليبية ، ويستغل لونه الأسود ، ليلعب دور الحاج
أو التاجر الأريب الذى تحدثنا عنه قصص ألف ليلة .. الذى كان
يأتى من بلاد الأفرنج فيدعى الاسلام ليقم بيننا يجمع المعلومات التى
توجه وترشد زحف الأساطيل ..

والشهادة التى نسجلها هنا من كتاب وضعه الزنجى الأمريكى
لويس لوماكس باسم « الأفريقى النافر » .. الكتاب يحاول اخافة
الغرب من زحف أفريقى تقوده القاهرة ، وباسم الاسلام طبعا ..
وستنقل فقرات من حديث للمؤلف مع الزعيم الأفريقى «سيلونديكا»
عضو اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى الديمقراطى فى روديسيا
الجنوبية .. قابله فى لندن ، وبعد أن تبين وطنيته وصلابته لجأ الى
سلاح الصليبية :

الصحفى الأمريكى : هناك تقارير منتظمة تؤكد أن المسيحية
تنحسر عن أفريقيا .. هل هذا صحيح ؟

الزعيم الأفريقى : صحيح الكنيسة لم تلعب دورا سليما فى

الشئون الافريقية •• لقد وقفت ضدنا الى جانب هؤلاء الذين
استعبدونا •• انها اليوم تقف على قدمها الأخيرة في أفريقيا ••

الصحفي الأمريكي : هل أنت مسيحي ؟

الزعيم الافريقي : نعم •• أنا كاثوليكي •• تعلمت في كلية
« ماريان هل » في ناتال بجنوب افريقيا •• وأنا طبعاً لم أنضم
للكنيسة لدوافع سياسية ، بل عن اعتقاد روحي •• ورغم ذلك
شعرت انها خذلتني •• الاسلام سيتصر في افريقيا وبالرغم من اني
سأظل كاثوليكياً •• الا أنني لا أستطيع أن أقول مخلصاً اني آسف
لتطور الأحداث •• رغم كل شيء فإن الدين يشكل جانباً حاسماً
من قيم الانسان •• ومن ثم يدفعه الى الحرية •• وهذا ما فشلت
فيه الكنيسة • لقد أعطتنا كل شيء ما عدا الحرية •

لنا تعليق ••

هذا الموقف الذي يشرحه الزعيم الوطني الافريقي هو عين
ما نقصده بالتفرقة بين مسيحي الصليبية الأوروبية ، وبين نصراني
الشرق •• فهو كاثوليكي •• ولكنه يرتبط وطنياً بالاسلام •• لأن
اتنائه الى كاثوليكية أوروبا يجعله عميلاً لاستعمارها •• عقبة في
طريق تحرر أفريقيا •• هذا التحرر الذي يرتبط بالاسلام •

كذلك الكنيسة الكاثوليكية التي يمثلها المبشرون ، أعطت

شعوب المستعمرات كما يقول الزعيم الافريقي ، كل شيء الا الحرية
•• لأنها هناك لسلب هذه الحرية •

وهكذا نرى أن الغرب لم يفرق في استعباده للشرق بين
النصراني والمسلم ، الا لضرورات تمزيق الجبهة الوطنية ، ولكنه
أبدا لم يعتبر مسيحي الشرق جزءا منه •• ونفس الموقف يجب أن
يتخذه واتخذه الوطنيون في الشرق الذين اعتبروا أنفسهم جزءا
من الوجود الاسلامي الوطني •

نعود الى شهادة لويس لوماكس :

« في القاهرة صدر قانون يمنع الجامعة الأمريكية والارساليات
الأمريكية من تدريس الدين ، وكان على الارساليات الأمريكية أن
تختار بين ترك التبشير بالمسيحية أو العودة لبلادها •• » « والسلام
الجمهوري في مصر يقول الله هو درعي » « اننى كمسيحي أمريكي
صدمت بما رأيت •• » وعندما يركب الاتوبيس يسمع مصرية
تحتج على الزحام فتزد عليها أخرى « الطريق الى مكة سيكون أشد
زحاما » وهو يكتب الجملة بألفاظها العربية ، ويعلق على قول المرأة
المزعوم : « اذا تحقق حلم ناصر عن العالم الاسلامي •• فسيزدحم
حقا الطريق الى مكة » •

(١) روى لي الأستاذ اسطفان باسيل المحامي المصري المعروف تفسير تسمية « دير
السلطان » بهذا الاسم •• انه نسبة للسلطان صلاح الدين الذي رده الى أقباط
مصر بعد ان انتزعه منهم الصليبيون فسماه باسم السلطان المسلم ••

وبالطبع •• نحن لا نتحدث عن مكة حتى في الاتوبيسات ••
ولكن مادام الهدف هو حشد الغرب في معسكرات ريتشارد قلب
الاسد والقديس لويس •• فلا بد أن يزعم الكاتب ان معسكرات
صلاح الدين قد نصبت في القاهرة •

والآن شهادة ألماني ، هو « هنريس كاستر » كتبها في مجلة
« دي بوليتشيا مينوتج » عدد يناير ١٩٦٣ •• تحت عنوان الاسلام
السياسي •• يقول الكاتب الألماني •• ان الدور الذي يلعبه الاسلام
في الأحداث الجارية بالشرق الأوسط لم يتضح بعد في أوروبا ••
ويمكننا أن نقرر ان التفكير الديني يحدد الكثير مما يجري في هذه
المنطقة •• وأنه خلف العديد من المشاكل التي نراها في آسيا
وأفريقيا تكمن العقيدة المحمدية ••

وقد لا يرضى عن هذا التحليل الغربيون (يقول الكاتب)
الذين نبذوا منذ زمن بعيد التفسير الديني للأحداث ، ولكن هذه
هي الحقيقة •

ثم يشرح تاريخ القومية العربية فيقول « لقد قدمت أوروبا
للشعوب الاسلامية في القرن التاسع عشر فكرة القومية العصرية ،
وفي هذه الفترة كانت الشعوب الاسلامية بدون استثناء تقريبا ••
اما تحت قبضتها أو تحت تأثير نفوذها السياسي على الأقل •

وفي القرن العشرين استغلت هذه الفكرة بنجاح سريع ضد
أوروبا نفسها ، باعثة في الأذهان ذكريات الانتصارات الاسلامية ••

بل وتبعث حتى ذكريات الحروب الصليبية » •• ثم يستشهد بخطبة
الرئيس عن صلاح الدين في بور سعيد ••

ثم يقول : « وعندما وجهت القومية العربية مجهوداتها قبل
٥٠ سنة ضد العثمانية ، لم تؤكد جانبها الديني •• وفي البداية ••
لعبت الأجزاء غير المسلمة وخاصة في لبنان دورا حاسما •• وفي
مصر كانت الحالة مختلفة تماما •• لأن القضية الرئيسية في مصر
كانت خلع الحماية البريطانية •• لذلك كانت حركتها القومية منذ
البداية « محمدية » •• وهى حتى الآن لم تتغير •• »

ومنذ بداية حركة القومية العربية •• لم تتوقف الخلافات حول
ما اذا كان من الضروري اكتسابها طابعا اسلاميا •• أو اقتصارها
على الجانب العربى •• ولا زال الخلاف قائما •• واذا كان من الممكن
أن تجذب القومية العربية اللادينية عددا من المتحضرين •• فإن
الكتل العريضة لا تجذبها مثل هذه المفاهيم •• فالعروبة عندها
لا تفصل عن الاسلام »

« وهكذا يرى فريق أن الوحدة العربية جزء من الحركة
المنصرة للاسلام •• بينما يرى الآخرون أن الاسلام ليس شرطا
ضروريا لتحقيق أهداف الوحدة العربية »

« وفى الحقيقة أن حدود القومية العربية لا تلتقى فحسب مع
الاسلام ، ولكنها محاطة أيضا بدائرة كاملة من الحركة الاسلامية »

« ومن السهل أن نرى تيارا ليبراليا ، ولكنه بالحقيقة سيكون
محمديا »

« قد يفضل البعض التقليل من أهمية التصريحات التي تعطى
للشعب .. ولكن حتى المتطرفون في تحيزهم للتجديد من العرب ..
لا يمكنهم تجاهل الحاح الجماهير في طلب دولة اسلامية »

« وربما كان من الخطأ أن نخلط بين الاسلام والقومية العربية ،
ولكن لا يقل خطأ عن ذلك أن نحاول التغاضي عن العلاقة الوثيقة
بين الاثنين .. »

« ان الاسلام لم يصبح مجرد دين ، بل عنصر سياسى »

أوربا اذن .. أو بمعنى أشمل الحضارة الغربية ، لا زالت
عند صليبيتها .. وقد ازدادت حدة هذه الصليبية في السنوات الأخيرة
مع خطر زوال امبراطوريتها في افريقيا .. بيت المقدس الجديد ..
و ضمان رفاهية الغرب وتفوقه .. وأوربا تدرك أن المنافس الحقيقى
لها ، والقادر على تصفية نفوذها هو العربى .. المسلم .. والذى
يعد المصرى أكبر اخوته ..

وفى مواجهة هذه الصليبية .. كان لا بد أن ندرك وجودنا
الحقيقى .. مصريون .. عرب .. مسلمون ..

ذلك هو وجودنا •• ومكونات شخصيتنا •• وكما أن الشجرة
تمتد فروعها مطاولة السماء بقدر ما تضرب بجذورها في الأرض ••
فكذلك نحن : بقدر ما نعز بتاريخنا •• بإسلامنا •• بقدر ما نكون
جديرين بمستقبل أشرف •• بعيدا عن محاولات اليائسين للعودة
الى الماضي •• أو التكرار للتقدم الحضارى •

ومن هذه النظرة يمكننا الحكم على أولئك الذين حاولوا
ويحاولون القاء التراب على وجه ماضيها •• اقتلاعنا من جذورنا ••
تحقيرنا ، باحتقار ماضيها ، أو خلق تناقض لا أساس له بين حقائق
وجودنا الثلاث •• فى محاولة لترجع احداها •• بهدف هدمها
جميعا ••

وقد تعرضنا خلال المد الثورى الذى أثارته ثورة ٢٣ يوليو
وظلت ترعاه وتدفعه بانتصاراتها ، تعرضنا لحملة تخريب واعية ،
كانت تهدف الى تشويه عروبتنا ، وبتر هذه العروبة عن الاسلام ••
وتشويه الاسلام ، واثارتنا لحرب ضد التراث وضد الدين •• حرب
لا مبرر لها ، ولا تخدم الا أعداء عروبتنا •• أعداء اسلامنا ••
التأميرين على وجودنا •

ومن مؤامراتهم الفصل بين مصريتنا وعروبتنا •• فالبعض
يهاجمنا نحن المصريين •• لأننا لسنا عربا •• بل لنا تاريخ يمتد
الى ما قبل الاسلام •• متخذين من التاريخ الفرعونى والقبلى نقيصة
يطعنون بها عروبتنا ••

وعلى الجانب الآخر شركاء لهم فى الهدف ، ولكن نيابهم
فرعونية ، وأصواتهم تدق بالحماس والطرب لمصر الفرعونية ••
مصر القبطية •• مصر التى هى أعظم من العرب والعروبة والاسلام!
والشائم لنا •• والمدح فينا •• يلتقيان عند نقطة واحدة ،
هى عزلنا عن العرب •• والمرء لا يحتاج الى دراسة التاريخ وعلوم
الاجتماع ليدرك أن لاعروبة بغير مصر •• وأن وجود مصر الحقيقى
فى عروبتها واسلامها ••

والفريق الأول يهاجم ثورتنا لأنها تسعى الى فرض سيطرة
مصرية ويتحدث عن رميس •• بينما الفريق الثانى يغرق ثورتنا
هذه فى «المدح» ويقسم ليل نهار •• أنها هى التى ردت للمصريين
جنسيتهم العربية ••

والفريقان يريدان الوقعة بين الثورة والشعب المصرى ، تارة
بالأسف على الشعب المصرى ، لما تقوده اليه العروبة •• وتارة بالمن
عليه بما تفضلت به عليه العروبة !

ولا حاجة للقول بأن الشعب المصرى العربى لم يتخلل أبدا
عن عروبه ، ولم يقف مرة واحدة بمعزل عن قضايا العرب •
وتمنى أن يأتوا بموقعة واحدة خاضها العرب ، وكانت مصر بمعزل
عنهم ، أو لم تكن قلب الأحداث¹

(١) الا النضال تحت زعامة لورنس المباحثى الانجليزى •• فاللق انا قابلناهم بهرود
تام •• وان تكن قطمان من جندنا قد ساقها الحكم الانجليزى للعمل فى هذه التى
يسنونها الثورة العربية •

نماذج

وما أحسبني هنا بقادر على أن أستعرض كل نماذج الصليبية في أجهزة الاعلام عند الغرب ، أو حتى في استقصاء التأثير بهذه الروح في الفكر العربي ، فذلك جهد ينوء بالفرد . . . ويعجز مثلي . . . بل حسبي أن أتقدم ببعض النماذج لعلها تكون بداية دراسة شاملة .

وسنبداً هنا بمثل للتقدمية الزائفة ، التي تقود صاحبها الى هاوية الرجعية ، بل الى التستر على الاستعمار وتبرئته من أجل حرب مزيفة ضد العادات الدينية .

الدكتور الطيب « مصطفى محمود » كتب تحت عنوان « شمعة تحترق » مقالا يتحدث فيه عن دور الصدقة في حياة الناس ، وعلاقتها بالتخطيط . وأورد مثالا للصدقة ، حكاية الكوليرا التي أصابت مصر قبل حادثة القرين ، فزعم انها جاءت مع حاج طيب القلب جاء يحمل زجاجة من ماء زمزم . تخاطفها أهل قريته ، فلم يجد حلاً

الا أن يلقى بماء الزجاجة فى بئر القرية • وتصادف أن كانت
الزجاجة ملوثة بميكروب الكوليرا ، فمات نتيجة ذلك ثلاثة ملايين
مصرى !

والحكاية كما ترى لا تتفق مع الواقع ، ولا مع المنهج العلمى
الذى يحاول صاحبنا أن يبشر به ••

وأغلب الظن أنه يتحدث عن وباء الكوليرا الذى وقع فى
١٩٠٢ ، وهو كوباء القرين ، جاء نتيجة للاحتلال البريطانى :
كوليرا القرين جاءت فى بعض الأطعمة الملوثة التى وصلت الى
الأهالى فى معسكرات الجيش البريطانى ، سواء عن قصد، كما يقول
البعض ؛ لتخريب المد الوطنى عقب اثاره القضية المصرية فى مجلس
الأمن ، أو كنتيجة محتومة لوضع قوات أجنبية لا تخضع لرقابة
صحية •

ونفس الشئ بالنسبة لكوليرا مطلع القرن العشرين بصرف
النظر عن صحة الرقم الذى يورده الدكتور للتهوئش ، والذى
لا يتناسب مع تعداد مصر فى ذلك الحين •

جاء الوباء مع الجنود الهنود العاملين فى قوات الاحتلال ،
واخترعت الدعاية الانجليزية حكاية الزجاجة والبئر لتخفى جريمتها
•• واذا كانت قد انطلت على الناس وقتها •• فما أظن أننا نقبلها
اليوم •• ولقد رجعت لبعض المختصين وأجمع رأيهم على أن ميكروب
الكوليرا لو كان فى ماء زمزم ، لأصيب به الحاج نفسه ، ولانتقل

الوباء بواسطته هو وعشرات الألوف من زملائه الحجاج ، لا لمصر وحدها ، بل للعالم الاسلامى بأجمعه . . . ولما كانت هناك حاجة بالميكروب لكى يتجشم عناء الرحلة من الزجاجة الى البئر . . . عبر الصدفة . . . وكل هؤلاء الحجاج الطيين يحملونه فى أحشائهم .

- ♦ ميكروب الكوليرا . . . كما يعرف أى طيب ، حساس جدا ، ولا يمكنه العيش فى نسبة الملوحة المرتفعة فى مياه زمزم .
- ♦ وهو - كما يعرف أى دكتور - يحتاج لرعاية خاصة ، وثبات فى درجة الحرارة ، لا نظن أن الحاج قد كفلها له فى هذه الزجاجة .

- ♦ منذ أن سافر أول حاج لبيت الله الحرام من ١٤ قرنا والناس يحملون ماء زمزم ويعبون منه ، ولم تسجل حالة وباء كوليرا بين الحجاج فى سنة من السنين .

هذه القضايا كلها غفل عنها الطيب ، لكى يفيظ المسلمين ، ويبدو أمام الناس بمنظر التقدمى الذى لا يخاف ولا يأبه بمشاعر الرجعيين المتدينين .

والقارىء السطحى سيصدق الدكتور ، وسينفر من المسلمين الجهلة ، الذين يحملون الكوليرا من ماء زمزم ، وسينسى جريمة الاستعمار ، بل ويتسرب الى نفسه احترام هذا المستعمر المتمدين الذى لا يشرب من زمزم ، ولا يحج لأبار الكوليرا .

والمسلمون الأتقياء ، وهم ملايين ، سينفرون من العلم الذي
يمثله الطيب .. ومن الصحافة التي تنشر له . وهكذا تبقى هوة
بين العلم والشعب .
هذا مثال لما يحدثه الغزو الفكري^١ .

(١) سأنتقل هنا رسالة قارئ، الى جريدة الجمهورية يعلق فيها على تذاكي (ادعاء
الذكاء) الدكتور المذكور حول فوز البطل المسلم كلاي على ليستون :
تحت عنوان : هل هذا يليق بالبطل محمد كلاي ؟ كتب عربي السيد حسن
أبو العينين - الشركة العربية لخليج الاقطان بينها : « قرأت في مجلة (صباح
الخير) في عددها رقم ٤٩١ - الصادر بتاريخ ١٠ يونيو الجاري تحت عنوان
(ضحكوا علينا) في صفحة (يوميات نص الليل) للأستاذ مصطفى محمود ..
ما معناه .. أنه كان هناك اتفاق بين (سوني ليستون) و (محمد علي كلاي)
بطل العالم في الملاكمة للوزن الثقيل .. يقضى بأن يتظاهر الأول بالهزيمة عند
أول فرصة تلوح لكلاي .. وقد كان .. وفي أقصر ملاكمة عرفت لها (حلبات ..
الملاكمة) سقط ليستون في أقل من دقيقة منهزماً بالضربة التي أجمع نقاد العالم
في الملاكمة على أنها لا تستطيع أن تطيح بطفل رضيع ، وقبض الاثنان أكثر من
٦٦٠٠٠٠ جنيه « الى هنا كان مضمون الكلمة التي كتبها السيد مصطفى محمود
.. وفي تعليق السيد الكاتب تهكم لا يصح بتاتا أن يطلق ويوصف به (محمد
علي كلاي) الشاب الذي استطاع أن يهزم دوائر الاتحاد العام للملاكمة في أمريكا ،
ويعلن إسلامه ويقبل كل صنوف التحديات ، ويعلن على الملأ أنه اختار الإسلام
لأنه طريق الخير والحق والحرية .. وان من آمن بالله لا بد وأن ينصره الله ويثبت
أقدامه .. وفي إسلام (كلاي) أكبر دليل على قوة إيمانه بالله وبكتبه ورسله
.. فلا غرابة حينئذ ، من أنه عندما انتصر أن يعلن وسط الآلاف انه انتصر ..
لأن الله أمدته بالقوة من عنده عز وجل وأثار قلبه للحق .. وأعمى بصيرة
متنافسه ..

لا غرابة في مثل هذه الكلمات لأنها عادية .. ولأن كل من ينصره الله ..
ما دام يسعى للحق .. يقول مثل ما قاله (كلاي) وكل هذا لا مكان فيه للدعشة
.. والتهكم والسخرية .. ولنقرأ تعليق السيد الكاتب : (العجيب في الأمر ..
ان السيد محمد علي كلاي ما زال يعتقد انه انتصر بمعجزة الهيا وهو وجه طريف ..

= آخر من المباراة .. أن يتخيل هذا الرياضي (العبيط) أن الله يشترك بمعجزاته
في حلبات الملاكمة والبنج بونج والثلاث ورفقات .. صدقوني انه عالم مجنون ..
مجنون .. مجنون .. { .. }

فهل كلام السيد الكاتب يليق ببطل مثل محمد علي كلاي ؟ إن كان هذا
يليق ، فلماذا أبرق إليه الاتحاد العام العربي للملاكمة ببرقيات التهينة ؟ لماذا
رحب به شيخ الأزهر ؟ لماذا هللت لانصاره الصحف العربية ؟ ولماذا أحببنا
جميعا هذا الشاب .. ؟

وعلقت « الجمهورية » على الرسالة قائلة : « مثل هذه الكلمات لا تستطيع
أن تنال أو تقلل من تفوق محمد علي كلاي وقدرته وانتصاره الهائل .. وهي
أيضا لا تستطيع أن تجرفنا الى دروب التشكيك في عظمة الاسلام وروعته ..
كأسلوب للحياة والسلوك القويم .. ان كلاي قبل عام ١٩٦٠ - أي قبل أن
يعتنق الاسلام - كان يعاقر الحمر والتدخين والمبازل ، وآمن بحق ان طريق
الاستقامة هو طريق النصر .. وهذا أمر يدهي يعرفه كل من شرح الله صدره
بالاسلام ، وليس معجزة من المعجزات ... »

اننا نجل ونحترم ونحب كلاي .. ونؤمن به بطلا سيظل النصر حليفه ...
وصدق الله العظيم اذ يقول : « ولينصرن الله من ينصره » .
(الجمهورية ١٩٦٥/٦/٢٧)

لنقل نحن كلمة ..

لو أن الأمر كان مجرد « يوميات نص الليل » لا بالينا بهذا الذكاء أو
الفهولة التي اكتشفت وحدها ما عجزت عنه مؤسسات الملاكمة في أمريكا وملايين
المراهنين وملايين الدولارات .. ومئات الحكام والرياضيين الذين يبغضون كلاي
بغض الموت لأنه أسلم .. ولأنه زنجي .. ما علينا .. من حق كل انسان في
هذا الزمان أن « يتذكى » وأن ينفث ذكاه على صفحات الجرائد ..
ولكن الأمر أكبر وأخطر من ذلك .. فإن المجلة التي كتب فيها هذا الكلام
قد هاجمت حركة الزنوج المسلمين في أمريكا واستشهدت عليهم بكتابات « لويس
لوماكس » الذي أشرنا إليه في ص ٤٩ من هذا الكتاب ..

ما الذي يغضب البعض في قيام حركة اسلامية في زنوج أمريكا .. ألم
يتجه « محمد علي كلاي » بعد اسلامه الى القاهرة .. هل ثمة عاقل يكره أن يتجه
الناس الى وطنه ؟ .. هل يكره عاقل أن يرتبط عشرون مليون زنجي في
الولايات المتحدة الأمريكية بدينه وبلده ؟ .. ألا يشكل اليهود بملايينهم الخمسة

= قوة ضغط هائلة على السياسة الأمريكية ؟ أيزعجنا أن يرتبط الزوج في أمريكا بالعالم العربي من خلال نوع الاسلام ؟

ليس الاسلام هو الدين الوحيد الذى يحور الزوجى وهو الفلسفة الوحيدة التى لا تعترف بالتمييز المنصرى .. ما الخطأ فى أن يلفظ الزوجى المضارة الغربية بكل زيفها وهو يعيش فى قمة تألقها وأنضج أمثلتها ثم لا تعطيه صفة الآدمية .. ما الخطأ إذا لفظ هذه المضارة وعاد الى دين المساواة الى حضارة الاخاء .. الى المدنية التى أنجبت بلالا وعمارا .. بل حتى كالفور الأخشىدى 1900 لا .. التقدمية ترفض هذا .. تقدمية من .. ولحساب من 19 .. لاندري ..

أو بالأحرى ندري .. ولا نقول .

وإليكم آخر

ظهر منذ أعوام * * * وغير ما سبب معروف ، ناقد * * * أغلب
الظن أنه مصرى * * * اسمه غالى شكري ، ماركسي التفكير * * *
عنصرى متعصب ، يحمل حقدا دفيناً على تراثنا * * * ويتعلق بأقدام
الفكر الغربى *

الناقد المذكور ، بمناسبة وبدون مناسبة ، يطعن في وجودنا
الاسلامى مدعياً التقدمية * * * ولو استطاع أن يمحو الاسلام من
تاريخنا لفضل * * * فهو ينكر أن يكون له أثر في ثقافتنا * * * بل لا يعتبره
موجوداً في التراث الانسانى !!

فعندما يتحدث عن تاريخ التراجيديا في مقال بمجلة الكاتب
عدد « يوليو » * * * مقال ينحى فيه ثلاث مرات للأب الراهب جوميه
* * * نراه يستشهد بقول جان فراييه * * * « الضمير البشرى موطن

(١) هو لا يخطئ ماركسيته ، بل يقول عن الشيوعية أنها « امتداد أكثر ازهاراً للآراء
التقدمية » الكاتب عدد يوليو ١٩٦٣ .

لتزاع لا يفتأ يتجدد بين الانسان القديم الذى يرزح تحت نير الخطيئة الأولى والانسان الجديد الذى خلقه التعميد خلقاً آخر *
والمسلمون لا يرزحون تحت نير خطيئة أولى * لأنهم يؤمنون بأن الله غفور رحيم * * وأن كل انسان مسئول عن نفسه ، وعن خطاياهم * * كذلك لا يعتقد المسلمون بأن التعميد يخلق الانسان من جديد * * بل تخلقه أفعاله واراادته الحرة * *

ولكن الناقد غالى شكري ، شأن أساتذته فى مدارس التبشير التى تعلم بها ، لا يسلك الاسلام فى عداد التراث الانسانى ، ولا يعتبر المسلمين عنصراً لا بد من اضافته فى وضع قوانين عامة للجنس البشرى * *

بل حتى فى تحليل مصر * * نراه يؤكد « تم تفاعل حضارى بين الفكرتين المسيحية والمصرية ما تزال لها رواسب فى النفس المصرية عند المسيحي والمسلم على السواء » * *

نحن نعتز بتراثنا كله * * وننحني لا للمراهب جوميه * فما اعتدنا الانحناء لرهبان بل ننحني لتاريخنا الفرعونى * * والقبطى * * ولبطولة آبائنا رهبان الصحراء * ولكن بمفهوم يختلف تماماً عن مفهوم غالى شكري وآبانوف والحديث ولأننا نعتز بتاريخنا كله لا يمكن أن نتكر للاسلام ولا يمكن أن نقبل حذفه هكذا من مكونات النفس المصرية * *

ولكن هل حذفه شكري غالى * *؟ نعم يقول فى نهاية مقاله

« ومن مصر القبطية الى مصر العربية (ولا أقول الاسلامية ، لأن الحضارة العربية كانت أعمق من أن يكون الاسلام عنصرها الوحيد، كما أن التجربة العربية مع الاسلام تختلف تماما عن تجارب الأمم الأخرى مع نفس الدين) مصر الفرعونية • مصر القبطية • ومصر العربية الحديثة • هي الحلقات الثلاث الرئيسية في تاريخنا القومي ومن خلال الامتزاج الحضارى العميق بين هذه الحضارات الثلاث تكونت ملامح النفس المصرية »^١

وداعا يا أربعة عشر قرنا • • وداعا يا موطن الأزهر • • وقلعة الاسلام وعاصمة الفاطميين • • وقاهرة الصليبيين • • أسرة لويس التاسع •

وداعا • • قد صدر قرار المحو ممن لا يرد قضاؤه • • الناقد • • السند غالى شكرى • • مصر الفرعونية التى اندثرت من عشرين قرنا • • تعيش فى دمي • • ومصر القبطية التى دامت سبعة قرون تشكل مصيرى • • أما أذان الاسلام يتردد خمس مرات من نصف ألف مأذنة بالقاهرة • • فلم تتأثر به • • ولا يجوز نسبته لمصر^٢ !
الناقد المذكور ، أخرج كتابا عن « أزمة الجنس فى القصة العربية » لنا رأى فى بعض ما جاء بهذا الكتاب :
المؤلف ساخط كل السخط على العلاقة الجنسية فى الاسلام

(١) ص ٥٤ عدد سبتمبر ١٩٦٣ مجلة الكاتب •

(٢) ترجيح العروبة فى كلامه على الاسلام ليس حبا فى معاوية ولكن بغضا فى على كما سنرى

•• على تعدد الزوجات ، على سهولة الطلاق •• جاعلا من هذه القضايا أس الفساد والبلاء وأم الخطايا جميعا •• ولا يخجل من أن يقول :

« التركة التي ورثها مجتمعنا على مدى الأجيال •• المواخير والدعارة في عصر الرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل والعصر البويهى ومصر الفاطمية ^١ •

ماذا بقى لك أيها العربى من تاريخك •• لتفخر به •• وهذه أمجد عصورك ، بل أشرق عصور البشرية ، قد تحولت بفضل غالى ومن علموه •• الى مواخير ودعارة ^٢ •

ويقرر فى ثقة العالم : « سهولة الطلاق ، والفساد الذى يحيق بالرجل والمرأة من جرائمه » ^٣ •

أرجو أن يكون قد سبمع بمنزل الدكتور وارد وما به من مرايا • والفساد الذى حاق فيه بالمرأة والرجل •• رغم صعوبة الطلاق •• بل ومن جراء هذه الصعوبة ، كما يقرر أى باحث اجتماعى منصف •

ويعود غالى شكرى فيقرر «الطلاق وتعدد الزوجات وما يتبعهما من علاقات كالزنا والبغاء» ^٤ •

(١) ص ٦٨ - ٦٩ •

(٢) القريب أنه يشهد لنا بمرات المواخير والدعارة وينكر علينا التأثير بالاسلام •

(٣) ص ٦٩ •

(٤) ص ٦٩ •

بديهية صليبية ينطلق منها سيادة الناقد .. الطلاق وتعدد الزوجات يعنى مجتمع بغايا وزناة !! هكذا نسمح لناقد أن يسم شرف أمتنا *

لا أدري ولا أظن أن الزنا والبغاء فى القاهرة يفوق مثيله فى روما حيث الدين الكاثوليكي يحرم تعدد الزوجات ، ويصعب الطلاق بل يحرمه؟! *

لا أريد أن أجرى وراء الاحصائيات .. كل ما يعينى هنا ، أن ناقدنا يزعم التحرر والتقدمية ، يسود صحائف يطبعها فى بيروت .. لطمعن النظام الاجتماعى فى الاسلام، ووصمه بالفسوق والفسح ، مرددا الحملة الصليبية التافهة حول نظام الزواج فى الاسلام *

ولا أدري لماذا لم يكلف نفسه عناء دراسة العلاقة الجنسية فى ظل الاسلام ، ليكتشف أنها قد وصلت الى قمة من السمو والانسانية ، القائمة على التكافؤ والاختيار الحر .. وأن الدول المتمدينة التى فتنه بريقتها - أن كان حسن النية - تسعى جاهدة للوصول الى علاقات زوجية كذلك التى أقامها الاسلام .. ولا أدل على ذلك من رضوخ حتى الكاثوليك لحق الطلاق ..

الأصل فى الاسلام - كما قلنا - أن الانسان حر الارادة ، وأنه يملك دائما أن يخطئ وأن يصحح خطأه .. فهو سيد مصيره .. وقرارات الانسان كلها انسانية .. وعلاقاته كلها انسانية ..

تستمد قوتها من طابعها الانساني ، وتتهار بارادة الانسان .. ليس
في ديننا شيء يعقد على الأرض فلا ينقسم الا في السماء .. وليس
في شريعتنا علاقة بين اثنين تسجل في السماء .. حتى يستحيل
علينا الخلاص منها !

نحن تزوج بارادتنا ، وبتعاهدنا .. لا برباط يعقده كاهن ..
وعندما يستحيل علينا العيش .. ننفصل ..

نعم ! .. نعيش معا بارادة حرة .. ولأننا نريد ذلك .. وباختيار
حر لا تكفيرا أو عقوبة عن قرار خاطيء اتخذناه .. ونبقى أبد
العمر نزرع تحته .. لا .. نحن دائما نملك أن نبدأ من جديد ..

ولست أدري كيف توصل الناقد الى أن يرمى أمهات
المسلمين بالفاحشة من فرضية أن سهولة الطلاق يتبعها فساد
وبغاء !؟ ..

الأعقل .. أن البغاء يتبع علاقة غير متكافئة بين رجل وامرأة
يرزحان تحت قيد زوجي لا سبيل الى الفكك منه .. لا رجل
وامرأة يملكان الانفصال .. بل كيف يمكن أن تنشأ الحاجة الى
الزنا أصلا في مجتمع ، لا حائل فيه بين أي رجل وأي امرأة ،
لكي يقيما علاقة جنسية شرعية فيما بينهما ..

بالطبع هناك حالات زنا فردية .. وعابرة .. تنشأ بين أفراد

لا يفكرون في العلاقة المستمرة •• ومثل هذه الحالات لا دخل لها
بنظام الطلاق اباحة وتحريما ' •

(١) في دراسة نقدية للدكتور لويس عوض عن مسرحية برنارد اليا يغمز بقوله ان
الرواية تدور في المجتمع « الاندلسي » حيث يرجع الزاني • تفسيرا للحياة
المتوحشة التي تحياها عائلة برنارد اليا •• ولا شك أن الدكتور لويس يعلم أن
المجتمع الاندلسي كان أكثر تحورا وانسانية من أسبانيا الكاثوليكية •• وأن رجيم
الزناة لم يتدعه الاسلام ، بل جاء في التوراة والانجيل •• وبدلا من التعريض
بالحضارة الاندلسية ، والجري وراء السخف القائل بأن تخلف اسبانيا والبرتغال
هو ثمره الحكم العربي •• بدلا من ذلك أليس الأكثر علمية •• أن يدرس آثار
الحكم العربي التي جعلت اسبانيا والبرتغال أول الدول الأوروبية دخولا في عصر
النهضة حتى امتصت دماء الحضارة منها محاكم التفتيش •• بل لماذا لا نتأمل
كلمات « كلودفاريير » عضو الاكاديمية الفرنسية يقول : في عام ٧٣٣ - ميلادية
ألت بالانسانية كارثة ، قد تكون أكثر الكوارث شؤما في العصر الوسيط كله •
وقد غرق فيها العالم الغربي ، طوال سبعة قرون أو ثمانية ، في مهاوى بربرية
كان عصر النهضة قد بدأ يبددها والتي قواها عصر الإصلاح من جديد •• هذه
الكارثة التي أكره حتى ذكرها ، هي الانتصار المقيت الذي أحرزه قروب بواتيه ،
متوحشوا الهاركاس من محاربي الفرانك بقيادة الكارولنجي شارل مارتل ، على
الكتائب العربية والبربرية التي لم يعرف الخليفة عبد الرحمن أن يحشد لها
يكفي ، فتراجعت وفشلت ، لقد تدهورت المدنية في هذا اليوم المشنوم ثمانمائة
عام • وذلك انه يكفي أن يكون الانسان قد شاهد حدائق الاندلس ، أو البقايا
المدمثة لمواصم السحر والحلم اشبيلية غرناطة ، قرطبة ، طليطلة ، لكي
يستشف ، في دوار معجز ، ما كانت قد آلت اليه فرنسا ، وقد خلصها الاسلام
الحاذق ، الفيلسوف ، المسالم ، السمج - الاسلام هو هذا كله - من أهوال
لا تسمى ، اجتاحت على الأثر بلاد الغال القديمة ، التي خضعت بادي الأمر
للعصايات الاوسترازية الوحشية ثم جزلت ومزقت وأغرقت في الدماء والدموع ،
وأفرغتها من الرجال الحروب الصليبية ، واتخمت بالبلث من جراء حروب كثيرة
أهلية وأجنبية ، في حين كان العالم الاسلامي ، من الوادي الكبير الى الأندوس
ينمو ويتنصر بسلام ، في ظل الأمويين والعباسيين والسلاجقة (لا مواخير ولا
دعارة ١٩) •

لو كان الناقد ثوريا •• أو نزيها •• أو متحررا يعتر بنسبته
لهذه الأمة •• لاكتشف في العلاقات الشخصية في الاسلام
ما اكتشفه ثوري أعتذر له أنني أحضره كشاهد في معرض الرد على
ما نحن فيه •• ذلك الشاهد الثوري •• هو عمار أوزيجان ، واليكم
كلماته :

« ان هذه الفوضى الأخلاقية المسببة للجريمة (الزنا) غير
واردة عندنا ، ليس لأن ابليس عاجز عن اغوائنا في حين ينجح في
جر الملائكة الى الهاوية •• كلا •• وانما لأن تأثير محيطنا الاجتماعي
يساعدنا على مقاومة أنفسنا وغرائزنا السفلى •• وأيضا بسبب
الزيجات المبكرة والمرتفعة النسبة •• وأخيرا بفضل البساطة التي
يتم فيها الزواج والطلاق سواء بسواء » •

كيف وصل أوزيجان وغالى •• من نفس المقدمة الى نتيجتين
متعارضتين تماما !؟

لأن الأول أنار بصيرته وعى الثوار وشرف الأحرار •• وربته
ثورية الشعب •• والثاني أعماه التعصب والتبعية •• وربته مدارس

= سانسال فيما بعد هؤلاء الفرنسيين (يقول الكاتب الفرنسي) ماذا يفكرون في
انتصارنا عام ٧٣٢ على المسلمين ؟ وعما اذا كانوا لا يحكمون معي أن هذا الانكسار
الذي أصاب شعبا متقدما على يد شعب بربري كان ، بالنسبة للانسانية جمعاء ،
مصيبة كبرى !؟ والمصيبة الأكبر أن ياتى كتابنا ليتركوا أيديهم همامة في الهزيمة
الاسلامية •• وانى اقتبس هنا من عمار أوزيجان •• استشهاده بالمثل الجزائري
(ما بيتكر أصله غير البغل) •

التبشير •• الثاني ماركسي أنكر ماركسيته ليخرج من السجن ••
وليس له يوم يفخر به ضد الاستعمار •

والأول زعيم ماركسي ، تخطى الماركسية الى آفاق نورية
جديدة ، وخرج من السجن الى الوزارة بعد أن حمل السلاح ورد
مع رفاقه الى ١٢ مليون حرّيتهم وعروبتهم بفضل اسلامهم الذي
أصروا عليه •

نعود لغالى شكرى

الغريب - ولا غرابة - أن هذا الكاتب الذى يضيق بزواج
الرجل بأربعة ، وسهولة الطلاق ، يمتدح فى أول دراسته المشاعية
الجنسية ، ويربط فى سخط بين الملكية الجماعية لوسائل الانتاج
والزواج الجماعى •• ويقول : « تلا ذلك مرحلة الزواج الجماعى
فى ظل الملكية الجماعية لوسائل الانتاج (كأن المرأة ضمن وسائل
الانتاج) فلم تبرز العلاقة الجنسية كمشكلة بين الأفراد (بالطبع
ما دام الجميع يتسافدون كالحمير) وان صلحت للتعبير عن حاجتهم
المشتركة الى الخصب والنماء فى بقية أشكال الحياة الانسانية
ومقوماتها » •

ثم ينتقل الى الزواج الحالى « فما أن دخل المجتمع الانسانى
فى مرحلة جديدة فى ظل الملكية الفردية لوسائل الانتاج » •
« ومن الواضح أن المرأة أصبحت فجأة (لا أدرى كيف
يصبح ذلك فجأة •• فالذى يحدث فجأة هو انقلاب سيارة •• أو

تقيؤ فكر فاسد .. لا تطور اجتماعى يستغرق آلاف السنين) فى وضع مهين ، لأن المساواة الاقتصادية بينهما تخضع لاعتبارات لم تكن موجودة من قبل » *

ولا أدرى هل بدأت المرأة تحبل وتلد بعد ظهور الملكية الفردية فقط .. وفى ظل الشيوعية البدائية كان الرجل والمرأة يلدان على قدم المساواة؟! ألم تكن حاجة المرأة الى من يطعمها ويحميها ستة أسابيع على الأقل - لضرورات بيولوجية قبل أى نظام اجتماعى .. تحتم وجود فارق بين دور المرأة والرجل فى الاتاج؟! يقول الناقد « بل ان هذه العلاقة خرجت بالتدريج أيضا من حدودها الطبيعية التى كانت تعتمد على مجرد الرغبة والتوافق بين اثنين »

هل الزواج الجماعى .. أو زواج القطيع .. يقوم على الرغبة والتوافق بين اثنين؟

هل يمكن وصف العلاقة الجنسية بين الماعز .. بأنها رغبة وتوافق بين جدى بعينه وعنزة بعينها؟! *

ولماذا يغضب هذا الأسف على الزواج الجماعى .. من تعدد الزوجات وسهولة الطلاق؟ الا لغرض فى نفس يعقوب؟! *

وهل ترك لنا يعقوب .. فرصة الظن ..؟

فى دراسة تضليلية عن سلامه موسى يقول : ولاشك أن هذه

المظاهر المختلفة : الطلاق ، البغاء ، الزنا ... تتخر في عظام المجتمعات العربية^١ »

« واما الطلاق في مجتمعاتنا العربية ، فانه يستند على قوى كبيرة ، بجانب قوى التاريخ ، تلك هي «الكتب الدينية» التي مايزال أثرها قويا في تشكيل مظاهر حياتنا وعلاقاتنا الاجتماعية . وكتب الأديان جميعا هي تعبير عن مجتمعات سابقة ، لاشك أنها عبرت في صورة صادقة عن تلك المجتمعات ، ولكنها ... في هذا الاطار - لن نستطيع وحدها أن نخدم مجتمعنا الحديث »

أهذا حديث يقصد به الزواج والطلاق وحدهما ؟!

يقول : « وحين قالت الاديان بالطلاق أيضا ، (لا حظ أن الاسلام هو وحده الذي قال) كانت تعبر عن هذه العبودية في شكل آخر ، هو « حرية » الرجل في « الانفصال » عن المرأة ... »
« والأسرة العربية ضربت رقما قياسيا في الطلاق ، لأنه يتاح للرجل أن يرمى بزوجه في عرض الشارع ، لمجرد أنه ألقى عليها « اليمين » ربما في غرزة حشيش أو « عشرة طاولة » وهي في بيتها لا تعلم انها أصبحت « حراما » على هذا البيت !
« وليس معنى ذلك ، أن نمنع الطلاق - كما تفعل الكنيسة الكاثوليكية ونضع رأسنا في الرمال كالنعامة . وانما يجب أن نبحث ظروفه الجذرية ، ونجرؤ على العلاج الجذري »^٢ .

(١) ص ٢٠٨ كتاب « سلامة موسى وازمة الضمير العربي » غال شكري .

(٢) ص ٢٠٨ نفس المصدر .

وهو يترك لنا مهمة التفتيش عن الجذر في بطن الشاعر ••
وإذا علمنا أن قائل هذا الكلام ينتمى الى مذهب مسيحي غير كاثوليكي
يبیح الطلاق في حدود وقيود •• عرفنا ان هذا الكلام لا يزيد عن
كونه تبشيرا رخيصا لهذا المذهب •• وعرفنا زيف كل هذا الحديث
عن تطور المجتمعات ، وادعاء حرية التفكير ، وأن هذا المستوى في
التهجم على نظام الزواج في الاسلام ، لا ينبعث من شعور لاديني ،
ولا من حرية فكر مزعومة ، بل من تعصب لمذهب ديني بعينه ••

وينسى أنه يكتب ، لينشر ما يكتبه على ملايين المسلمين ••
فيقول : « والحديث عن أثر الدين في المجتمع ، يجرنا الى ظاهرة
تعدد الزوجات المتفشية في مجتمعنا •• (الاحصائيات الرسمية تقول
انها تتراوح بين نصف في المائة وثلاثة في الألف) وبمنظرة سريعة
الى تطور التاريخ البشري ، نلاحظ أن الرق كان بداية عصر «تعدد
الزوجات» فالمجتمع المشاعي الأول لم يكن قائما على « وحدة
الزوج » ، وانما هو المجتمع العبودي الذي حط بمكانة المرأة •

« فاذا جاءنا كتاب ديني ، ليصور ذلك المجتمع البعيد ، وجب
أن ندرسه من هذه الزاوية التاريخية (!!) لا أن نطبق تلك القيم
بصورة آلية على حياتنا الحديثة ، وكأننا نقوم بعملية اتحارية نهدف
منها ان نزرع بقوام مجتمعنا الكبير داخل صناديق حديدية صغيرة ،
لاتسع الا للدمى ، فما كان يتسع لطفولة الجنس البشري ، لاريب
أنه يضيق عليه في شبابه •

« ونحن لا ننسى، انه يوجد بيننا «رجال دين» أى كهنة (!!) ،
يرون من مصلحتهم البقائية ، تجميد مجتمعا أو تحنيطه فى تلك
الأطر العتيقة .»

« ولكن التقدم العلمى لايتيح لنا أن نقبل هذه الأيدى ونحنى
لأصحابها، وانما يجب أن ندفن الكهنة بصناديقهم فى متحف تاريخنا.
فليس مما يتلاءم مع طورنا الصناعى الوليد - حيث تنال المرأة قدرا
من الحرية الاقتصادية أن تبقى فى هذا الوضع المهين،الذى يسمح
لزوجها ان يحيل بيته الى فراش مكيف لعدة نساء فى وقت واحد ،
ويضىء له النور الأحمر كتاب السماء .»

« ان المرأة الجديدة لن ترضى بهذا الهوان ، وستعطل النص
الكهنوتى بحركة ذاتية ، لأن الرجل فى أزمة الرأسمالية المعاصرة -
لن يقوى بدوره على ارتداء هذا الزي الأثرى .» * * * زى هارون
الرشيد « .»

اذن . . فتعدد الزوجات الذى يبيحه الاسلام هو مظهر
للعبودية . . والقرآن الذى أباح تعدد الزوجات هو «كتاب دينى
يصور المجتمع العبودى » وواجبنا - كما يعلمنا - هو « دراسته
تاريخيا » لا أن « نتحرر » بمحاولة زج مجتمعنا الكبير فى القمم
الصغير الحديدى الذى لا يتسع الا للدمى ، وهو الدين الاسلامى !»

(١) ص ٢١٠ - ٢١١ نفس المصدر .

والمسلمون .. كهنة يجب دفنهم ..

« وشريعة الاسلام » أطر عتيقة .. والمرأة المسلمة فى وضع مهين ! .. « والقرآن » يضئ النور الأحمر للرجل فى الفراش المكيف ..

وآية « فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » نص كهنوتى .. يبشرنا غالى شكرى أنه سيعطل ..

وإذا ظن البعض أن حرية الفكر أو حرية العقيدة تبيح ترديد هذه الأقوال عن دين المسلمين : دين الغالبية العظمى، فى الندوات الخاصة للمبشرين .. فما من أحد - مسلم أو مسيحي - يرضى أن يكتب هذا الكلام وينشر على الخاصة والعامة بلا تمييز .. خاصة وقد كشفنا ان رداء حرية الفكر الذى يتلفح به قد خرق من كل شبر فيه .. وأنه ليس الا مبشرا لكنيسة بعينها ..

هل ترضى أيها العربى .. مسيحيا كنت أو مسلما .. ان تقال هذه العبارات : « وهيكىك يدع جان جاك روسو جانبا ويهرول الى التاريخ الاسلامى يجتر منه أفكارا بالية .. »^١

الأفكار البالية التى اجترها هيكىك هى : « حياة محمد صلى الله عليه وسلم » .. و « فى منزل الوحي » .. أترضى أيها العربى - مسيحيا كنت أو مسلما - ان يقال عن « حياة محمد » « وفى منزل

(١) ص ٢٠ نفس المصدر .

الوحي « أنها أفكار بالية؟! هل ضربت علينا الذلة والمسكنة ليقال عن تاريخنا ونينا هذا الكلام؟! »

وغالى شكرى نائر على كل ما يمت للاسلام بصلة .. في دراسة لأدب « عبد الحميد جودة السحار »^١ يتهمه بأنه من الفريق الذى يخشى الثورة « لأنه يخاف على ما فى جعبته من قيم قديمة من المثاليات والأديان والسماويات» والى هذا الفريق يقول غالى شكرى: « تنتمى أول مراحل القصص عبد الحميد جودة السحار التى ظلت كثيرا من رواستها عالقة بانتاجه الأدبى حتى أحدثت مراحلها .. ويكفى أن نلقى نظرة خاطفة على قائمة مؤلفاته الدينية لكى تتضح اهتمامات المؤلف وندرك جوهر ما يؤلف » .

ثم يستعرض « جرائم » المؤلف ، أو دليل تخلفه ، الذى يبيح له الحديث عنه بهذه اللهجة بمجرد النظرة الخاطفة .. من هذه المؤلفات - يسجل غالى شكرى : بلال مؤذن الرسول ، سعد بن أبى وقاص ، أبناء أبى بكر الصديق ، أهل البيت ، قصص من الكتب المقدسة ، قصص الأنبياء ، قصص السيرة النبوية ٢٤ قصة .. قصص الخلفاء الراشدين ٢٠ قصة .. الخ .. الخ ..^٢ ويكمل « ولست أريد أن أحصى عدد الآيات القرآنية التى تخللت الأقصوة »^٣ .

(١) لسنا ندافع هنا عن الجانب الفنى فى أدب السحار .

(٢) ص ٢١٠ .

(٣) ص ٢١١ .

يحاول أن يقلد سلامة موسى عندما انتقد عبقریات العقاد ،
ناسيا أن كتابات سلامة موسى ، قد انتهت بوفاته ، وأن ما بقى منها ،
ان كان يجذب اهتماما ، فكما يهتم الباحثون برسومات الأطفال ،
ندهش من قدرتهم على التعبير ، ولكننا لا نتخذها أبدا كمقياس لفنون
الكبار أو نموذج يحتذيه الدارسون •
ناسيا الفارق الضخم بين يومنا •• والأمس الذى عاشه سلامة
موسى •

كان المجتمع المصرى أو المجتمع العربى بصفة عامة تحكمه
رجعية تستغل الدين •• وكان هجوم سلامة موسى على الدين ،
يفتقر فى ظل الحقد العام على الرجعية •• كنا مشغولين فى حربنا
ضد شيوخ الأزهر الذين يخدمون الملك •• عن أن نتبه لطعنات
سلامة موسى التى توغل فى اللحم الى أبعد من قشرة رجال الدين
المتهرئة •• كنا مشغولين لدرجة اننا لم نتوقف لنرد سلامة موسى عن
هجومه وطعنه فى فخر أمتنا •• عبد الرحمن الجبرتى ، الذى عيره
سلامة موسى بأنه شيخ أزهرى •• كأنها سبة •• لأن الجبرتى هاجم
المتعاونين مع الاحتلال فى جيش الخائن الجنرال يعقوب •• بينما
كان الجبرتى أرحب صدرا منه ، فلم يتردد فى نقد علماء الاسلام
الذين تخاذلوا أمام المحتل ••

كنا مشغولين بخربنا ضد الأزهر الرجعى والاقطاع المستغل
للمدين عن أن نلتفت لغمزات سلامة موسى ، والتى لا يمكن تفسيرها

أو تبريرها •• ولو كانت تشنجات عصبية من متعصب لأمكن فهمها
•• أما أن تصدر عن كاتب كان يفاخر بأنه لا ديني •• وهو كذلك
فعلا •• فأمر يحتاج لتفسير •• ويستحيل على التبرير •

ثم أن يأتي آخر بعد أن تحررت بلادنا ، بعد أن أصبح لدينا
رجال دين أحرار •• بل بعد أن أصبحت معركة تحرير أفريقيا ••
كما يشهد كتاب الغرب أنفسهم •• هي معركة الاسلام ••

وفي وقت تبذل الدولة وحكومة الثورة ، الأموال لطبع
المصحف وتسجيله ؛ وتعمل ليل نهار لاصلاح الأزهر حتى يضطلع
بمسئوليته الكبرى •• وفي الوقت الذي يحشد فيه الغرب كل
أسلحته ، ودعايته لمحاربة الاسلام في أفريقيا •• باعتباره الخطر
المباشر على نفوذه الاستعماري •• ولا يجد الغرب الا الأكاذيب
العفنة يرددها عن حكاية تعدد الزوجات والطلاق والرق •• ويروج
بيننا في خبث ، دعوة لتقدمية زائفة ، تدعوننا الى أن نفض عنا ديننا
•• لأنه من القيم القديمة !!

في مثل هذه الظروف •• لا يكون ثوريا من يهاجم الاسلام ،
ولا تقديما من يعرض به •• بل اني أتهمه بخدمة الأهداف الاستعمارية
في الوطن العربي •• وأفريقيا •• لا فرق بين جهوده وجهود
المبشرين الاستعماريين الذين يتآمرون على وحدة السودان ، والذين
يثيرون المتاعب للحكم الوطني في أفريقيا السوداء •

وليس من المعقول ولا من المقبول ، أن نسكت على كاتب

يحاول أن يسخر من مؤلف مسلم لأنه يكتب عن « بلال مؤذن الرسول » .

لو كان الناقد ثوريا ، تقديميا ، تعنيه قضية تحرير أفريقيا ، ويقف الى جانب شعوبها في معركة تقرير المصير . . . لبدل سنوات من عمره في دراسة هذه الشخصية الفذة . . . بلال . . . الأفريقي . . . الأسود . . . الذي آمن بالاسلام دين المساواة ، فاستمد منه قوة قهرت أسياده ، واستطاع أن يصل تحت ظلال الاسلام الى الصف الأول . . . وكان له الفضل والسبق على سادة قريش جميعا . . .

لو أنه بذل جهدا في تعريف الأفريقيين بلال مؤذن الرسول . . . بدلا من الاستهاد به للتعريض بالقصاص العربي ، بل وأن تكون الكتابة عن هذه الشخصية مثارا لحقده ، الى حد استدعاء الشرطة للقبض على القصاص بتهمة معاداة الثورة أو عدم التجاوب معها . . . كأنه هو . . . المعجب بحضارة طرازان . . . ثوري ؟! . . .
وانه لما يشرفني أن أكتب هذه الكلمات قبل أن أقرأ لعمار أوزيجان ، وصفه المبدع « لموسم سيدي بلال » والذي يحتفل به شعب الجزائر .

يقول الشاعر الجزائري : « كان موسم سيدي بلال ، طوافا سنويا أخاذا يقوم به المسلمون السود في الجزائر . . . ومن أجدر بلعب هذا الدور الرمزي من سيدي بلال العبد الأفريقي المعتق ،

(١) أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا . . . (عمر بن الخطاب يعنى بلالا) .

رفيق النبي ومؤذنه ، •• « الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لأبيض على أسود ، ولا لعربي على أعجمي ، الا بالتقوى •• كان الاسم الرمزي لبلال بن رباح يعكس النزوع الى المساواة عند الشعب الأسود •• وكان يتخذ شهادة على ايمانه ، يذكر العالم الاسلامي كل يوم ، المؤذن الأول الذي كان يمكن لشاعر كاييه سيزيز أن يفتي « العبدية برائححتها الشهية ، برائحة البصل المقلّي » مضافا الى ذلك غسل الحرية وعطر الاخوة في المدينة المنورة •• والواقع أن اسم سيدي بلال مقترن بالأذان •• هذا النداء الرخيم الذي يحرك الروح وهو يساعد من المآذن معلنا الصلوات الخمس اليومية •• ثم يورد عمار نص الأذان ١ •

عمار أوزيجان •• ليس من مشايخ الطرق الصوفية ، بل قاهر فرنسا •• وأحد بناء الاشتراكية في الجزائر •• ومع ذلك أرجو من السيد غالى أن يكلف خاطره ويحصي عدد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في كتاب أوزيجان •• وليثق أنه لا يصل الى أن يجلس مجلس أصغر التلاميذ في حضرة أوزيجان من ناحية الثقافة الغربية •

لماذا نضحك في كمنّا عندما نؤلف عن بلال •• ونركع في خشوع عندما يؤلف الآخرون عن جان دارك •• لماذا يثيره أن

(١) الجهاد الافضل ص ٩١ •

يحصى الآيات القرآنية فى قصة •• ولا يحصى آيات الانجيل فى
خطب وكتابات لين وستالين مثلا !

ويصف أسلوب السحار بالسذاجة قائلا : « ان هذه السذاجة
كانت تتوارى بين حين وآخر كلما تخلص الكاتب قليلا من عواطفه
الدينية تحت ضغط الأحداث ، واصرار التماذج البشرية على أن
تبدو انسانية حقا •• »

كأن العواطف الدينية تحجب الانسانية !

ثم يتولى وعظنا :

« فلم تعد حضارتنا قاصرة على كتب الدين ، كهدية تقدمها
الى أوروبا لتجذبها من حظيرة الشيطان الى حقل الايمان •• ان
أوروبا تنفق ملايين الجنيهات على الكتاب المقدس والفلسفات اللاهوتية
ومعاهد التعليم الغيبى ، وهى اذن •• ليست بحاجة الى أنبياء جدد من
الشرق •• ولم يعد الشرق نفسه شرقا •• انه يستطيع الآن أن
يضيف الى الحضارة الانسانية شيئا جديدا غير الرسائل السماوية ،
شيئا يرتفع الى مستوى العصر ، فى النقد العلمى والضميرى معا ،
قد تبدو أنها كلمات عقل مختل يستخلص من مقدمات
صحيحة نتائج مغلوطة •• ولكنها منطوق رجعى معاد لوجودنا
وقوميتنا •

(١) ص ٢٢٩ •

الناقد معجب بالحضارة الأوروبية ، وهو يشهد أن أوروبا
المعاصرة تنفق ملايين الجنيهات فى طبع الكتب المقدسة ومعاهد التعليم
الغيبى والفلسفات اللاهوتية •• فلماذا بالله وبالشياطين لا نفعل
نحن؟! •• الا اذا كنا حريصين على عدم اعتراض سبيل اللاهوت
الأوربى •• والشوشرة عليه؟! هل تقرأ أعيننا لأن أوروبا تنفق
الملايين على طبع كتابها المقدس؟ •• لماذا لا تنفق نحن على الدين
وعلى كتابنا المقدس كما تفعل أوروبا الذرة •• أوروبا الصوارينخ
وغزو الفضاء •• لأن أوروبا لم تجد ناقدا مثقفا واعيا تقديما مثل
غالى شكرى يردها عن الغى الذى تتردى فيه •••• بينما رؤثنا نحن
وحدنا بهذا الناقد!

ومتى كانت حضارتنا قاصرة على كتب الدين •• متى؟ ••
يوم انتشرنا نحمل كلمة القرآن من طنجة الى بكين •• يوم صدمنا
أوروبا الفارقة فى هاوية التخلف وظلمات الجهل •• يومئذ لم
تقتصر حضارتنا على كتب الدين بل نشرنا كتب العلم ، وخلاصة
الفكر الانسانى •• فلما هوت حضارتنا •• لم نعد نصدر لا ديننا
ولا دنيا ••

وهل صحيح أن الشرق لم يقدم سوى الرسائل السماوية^١ ،
وأن النقد العلمى والضميرى ، الذى يرتفع الى مستوى العصر

(١) الرسائل السماوية لا ترتفع الى مستوى العصر!! ربما كان نقد السيد
غالى هو الذى يرتفع!!

لا يتأتى إلا اذا طرحنا عنا •• الرسائل •• أكان منهاج ابن خلدون
الإثمرة العقل الإسلامى •• والكندى وابن سينا وابن طفيل وابن
رشد كل زهرات الشرق تكررنا بأنفك المزكوم !

اسمع رد عمار أوزيجان •• « انكار وجود فلسفة انسانية ،
ودينية ، هو طمس لكل ما قدمه عرب الأندلس خلال نصف قرن ،
هؤلاء الزارعون الذين قدموا القمح الأسود ، الثقافة ، الرى ،
الطب ، الصيدلة ، الفلك ، الهندسة ، صناعة الحرير ، والصياغة ،
والتسامح ، والتعايش السلمى » ١ •

اذن •• ليست الرسائل السماوية وحدها هي ما تصدره
حضارتنا •• والشرق الذى سيقى شرقا ، وستخيب كل محاولات
الصلبية التى تأمل دائما أن يصبح ليس شرقا •• وان آمنت هي
وبشرت بأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا •

ويظن غالى شكرى ، أنه قد افترس عبد الحميد جوده السحار
وما يمثله عبد الحميد فيمعن طعنا وتجريحا •

« الاقتباس من القرآن يذكرنا أكثر فأكثر أن السحار ظاهرة
أدبية ، تمثل رد الفعل العنيف لتطورنا الحضارى ، من جانب القيم
القديمة •• كما أنه رد فعل طبيعى لأكوام الأدران الصفراء ٢ •

(١) ص ٥٣

(٢) ص ٢٣٠

ماذا نقول لمن يسمى قرآنا .. فيما قديمة .. وأدرانا

صفراء 19!

أنقول مع العجزة .. حسبنا الله ونعم الوكيل ... الله ينصر

دينه .. ؟

.. لو أن رينان هو الذي يقول هذا يسند جيش احتلال ..

وأساطيل أوروبا العظمى تزمجر عند الثغور .. لقبنا الشهادة دفاعا

عن الحق *

أما اليوم ، وقد كسرت ثورتنا والثورة الجزائرية ، ووجود

الرئيس عبد السلام عارف ، العمود الفقري للاستعمار الصليبي ..

فاننا نقول الاقباس من القرآن ليس ردة .. والأدراان الصفراء هي

ما كتبت وما طبعوا لك في بيروت .. ولو على ورق أبيض *

اسمع أوزيجان : « تستعجل العقلية العصرية كثيرا في توديع

الأديان كلها توديعا مأميا ، دون أن تدرك أن الأيدلوجية الاسلامية

ليست محتضرة ، بل في كامل اندفاعها وحركتها » *

« ما أكثر الذين انتقدوا الاسلام دون أن يعرفوه .. انهم

يشاركون في الجهل رينان » *

وعلى ذكر بيروت التي طبعت كتاب غالى ، أقول ان له في

كتابه هذا .. رأيا جديرا بالتأمل ، عن لبنان .. ولو أنه منطقي من

أمثال هذا الناقد •• فهو حريص على أن يؤكد وجود فارق بين لبنان ومصر ينعكس في اختلاف أدبيهما •• وبين لبنان والأدب العربي كله ، ويتفق في ذلك مع الدعوات الإقليمية •

الفارق الذي يكتشفه الناقد •• فارق ديني •• رغم كل ما سوده في « تنفيه » شأن الدين •• فهو يقول : « فلو بحثنا عن السمة الغالبة على الأدب اللبناني لاكتشفنا أنها ليست تماما هي السمة الغالبة على الأدب المصري رغم القرابة التاريخية التي تربط المجتمعين »^١ •

تأمل حكاية القرابة التاريخية •• ثم اقرأ : « لا نعر على هذا الاحساس المسيحي الحاد بالخطيئة في غير لبنان ، ولكنه يعتبر من الخصائص المميزة لأدبه » ••^٢

انا رغم رجعتنا •• وايماننا •• نرفض القول بلبنان المسيحي •• ونرفض أيضا قوله : « أمتنا العربية التي ما تزال في دور التكامل والتكوين »^٣ •

وهو هنا بغاء يردد قول الشيوعيين الفرنسيين عن أمة اكتمل

(١) ص ٧٠ لاحظ تناقض ذلك مع مقاله في مجلة الكاتب الذي يؤكد فيه الروح في مصر •• لتعرف أنه لا يتبع منهجا •• بل حرب صليبية حسبه أن يطلق في كل مناسبة قذيفة •

(٢) لو اهتم في دراسته المفرضة عن أدب احسان عبد القدوس بقراءة قصة لا تطرفه ! لوجد هذا الاحساس المسيحي •

(٣) ص ١٦٤ •

تكوينها قبل أن يتشكل غالى شكرى وزعماء الحزب الشيوعى
الفرنسى ، فى الأرحام •

وإذا كان شكرى غالى قد لمس احساس اللبنانيين الحاد بالخطيئة
التابع من مسيحتهم •• فأننا نرجو له - وهو الناقد المسيحي - أن
يحس بجرم ما ارتكب من خطيئة، اذ سود هذه الصفحات ضد تراث
أمته •• والافما ترائه ان كان عربيا ؟!

وأحب قبل أن أنهى حديثى عن غالى شكرى أن أناقش هنا
بعض الآراء التى روجها فى مجلة الكاتب عدد سبتمبر •• فى دراسة
عن التراجيديا المصرية زعم فيها أن أبا نوفر هو أول بطل
تراجيدى •• ولكن ما يعنينا فى هذه المقالة المتعددة الطعنات •• هو
طعنه فى الاسلام بمثل هذه الآراء :

« أما القضية الرئيسية فى الاسلام ، فهى العلاقة بين الانسان
والله • وهى علاقة قائمة على أساس التسليم بالحقيقة الالهية «المعرفة
ليست غاية على الاطلاق» وعلى الانسان أن يدعى لما « يمكن » أن
تقدره المشيئة الالهية دون أن يساوره الشك فى عدالتها وصواب
حكمها »^١ •

حكاية القدر فى الاسلام ، والتهويل فيها ، شئنة صليية
نعرفها فى كتاب الغرب من الدرجة الثالثة •• ولا نأبه بها •• فتينا

(١) ص ٥٣ •

لم يستسلم للقتل •• بل حفر خندقاً يقيه هجوم الأعداء ، وأرسل جنوده ليلاً ليقتالوا الأعداء •• واتقى الصحابة السهام عنه بظهورهم •• واحتال ببراعة ليفلت من حصار المشركين ليلة الهجرة •• حتى معجزاته ، ليس فيها هذا القدر الخرافى ، كما يصوره الغربيون ، فلا بد من نسيج عنكبوت وبيض حمام عند مدخل الكهف لمنع المشركين من الدخول عليه صلى الله عليه وسلم •

ليس فى ديننا استسلام بليد للقدر • ولا خضوع ذليل لتصاريفه • بالعكس •• لأنه مكتوب على ابن آدم •• انه لا يعرف الغيب •• فان عليه أن يسعى بكل ما يستطيع لصنع مستقبله •

أما موقف المسلمين من المعرفة •• فسأرد عليه من كتاب قدرى حافظ طوقان •• « مقام العقل عند العرب » •

قال العلاف^١ : « ان معرفة الله تعالى ومعرفة الدليل الداعى الى معرفته تم بضرورة العقل » •

وفى رسالة الكندى للمعتصم « ان أعلى الصناعات الانسانية وأشرفها مرتبة صناعة الفلسفة •• ولماذا ؟ لأن حدها علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الانسان • ولأن غرض الفيلسوف فى علمه ، اصابة الحق • وفى عمله ؟ العمل بالحق » •

(١) من أئمة المعتزلة •

« وينبغي أن لا نستحي من الحق واقتناء الحق من أين أتى،
وان أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا، فإنه لا شيء أولى
بطلب الحق من الحق، وليس ينبغي بخس الحق ولا تصغير بقائله
ولا بالآتي به • ولا أحد بخس بالحق • بل كل يشرفه الحق •••»

العقل من يظن أن فوق علمه علما، فهو أبدا يتواضع لتلك
الزيادة والجاهل يظن أنه تنهى فتمتته النفوس لذلك •••»

وتعرض الفارابي لنظرية المعرفة، وقد أودع بعض عناصرها
متفرقة في كتبه ورسائله^١ •

وكذلك يرى الفارابي أن الدين والفلسفة لا يتناقضان، وليس
بينهما من اختلافات جوهرية • ذلك لأنهما يتفرعان من أصل
واحد يحوى المعرفة والحق والحياة - وهو العقل الفعال •

« ويرى الفارابي أن أكمل اجتماع انساني هو الاجتماع الذي
يشتمل على جميع أمم الأرض » ويرى الدكتور جميل صليبا أن
الفارابي بمدىته كان أوسع أفقا وتصورا من فلاسفة اليونان^٢ •

وفي رسالة سماها « النكت فيما يصح وفيما لا يصح من أحكام
النجوم » بين فساد علم أحكام النجوم الذي يعزو كل ممكن وكل

(١) ص ١١٦ مقام العقل عند العرب •

(٢) ص ١٢١ نفس المصدر •

خارق الى فعل الكواكب وقراءاتها * * « لأن الممكن متغير لا يمكن معرفته معرفة يقينية *

وانتهى الفارابي من هذا كله كما يقول دى بور * * « بأن هناك معرفة برهانية يقينية الى أكمل درجات اليقين نجدها فى علم النجوم التعليمى *

أما دراسة خصائص الافلاك وفعالها فى الأرض فلا نظفر منها بمعرفة ، ودعاوى المنجمين ونبوءاتهم لا تستحق منا الا الشك والارتباب ' « *

ونفى ابن سينا امكان تحويل الفلزات الخسيسة الى ذهب وفضة ، ونفى امكان احداث هذا التحويل فى جوهر الفلزات « لأن لكل منها تركيبا خاصا لا يمكن أن يتغير بطرق التحويل المعروفة » انظر دقة العالم * * فى قوله « الطرق المعروفة » ثم نبوءاته لكأنه يعرف النظرية الذرية * * وحكاية الجزىء والذرة *

« ان الانسان لا يعبر الى السعادة القصوى الا على جسر من العقل والعلم » ابن سينا *

وقال ابن سينا ان النظام الكلى للعالم مقدور لله تعالى ، وقد

(١) ص ١٢٢ .

(٢) ص ١٢٩ .

أبدعه على شكل ينطوي على الخير والشر • أما الجزئيات أى أفعال
الناس فهي منسوبة الى فاعلها لازمة لهم ولا علاقة لها بأفعال
البارى^١ •

ويعترف نلليو بأن قياس المأمون وقياس البيروني لمحيط
الأرض من الأعمال العلمية المجيدة والمأثورة للعرب^٢ •

« وكان يرى في وحدة الاتجاه العلمى فى العالمين الاسلامى
والغربى اتحاد الشرق والغرب • وكأنه كان يدعو الى ادراك وحدة
الأصول الانسانية والعلمية بين الشعوب فى عالم واحد^٣ • »

ولابن حزم آراء علمية ونظريات فلسفية « هى فى الطبقة
الأولى من القيمة الذاتية للحقيقة » كما يقول الدكتور عمر فروخ^٤ •

ومن هذه النظريات الجديرة بالذكر والاعتبار « نظرية المعرفة »
وقد عقد لها فصلا خاصا فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء
والنحل » •

ويقول الدكتور عمر فروخ « ابن طفيل فضل طريق العقل
على طريق الدين^٥ » •

(١) ص ١٣٧ •

(٢) ص ١٤٢ •

(٣) ص ١٤٢ •

(٤) ص ١٧٦ •

وابتدأ الجاحظ كتابه الشهير (الحيوان) بما يلي : « جنبك الله
الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا »^١ .

وخرج الدكتور لويس برنارد (أستاذ تاريخ الشرقين الأدنى
والأوسط في جامعة لندن) من دراساته بأن « أوروبا تحمل دينا
مزدوجا للعرب . تعلمت أوروبا من العرب طريقة جديدة للبحث ،
وضعت العقل فوق السلطة ، فنادت بوجوب البحث المستقل
والتجربة »^٢ .

وفي كتاب المسائل الطبيعية الذي ألفه « قبل ثمانية قرون »
العالم الانجليزي « أدلارد أوف باث » يتجلى اعجابهُ بطريقة العرب
في جعل العقل الدليل والقائد ، وذلك من الفقرات التالية ، وهي
موجهة من « أدلارد » الذي درس في الجامعات العربية وتأثر بطريقة
علماء العرب الى ابن أخيه الذي درس في جامعات الفرنجة وتأثر
بطريقة علماء الفرنجة .

« انني وقائدي ودليلي هو العقل - قد تعلمت شيئا من أساتذتي
العرب : وأنت تعلمت شيئا مختلفا عنه . لقد بهرتك مظاهر السلطة
فوضعت في رأسك لجاما تقاد به »^٣ .

(١) ص ٢٠٤ .

(٢) ص ٢٢٨ .

(٣) ص ٢٢٧ - ٢٢٨ نفس المصدر .

ويعترف غوستاف لوبون بأن العرب أول من آمن بما نطلق عليه حرية الفكر والتسامح الديني^١ .

وقال بيكون عن ابن رشد « انه صحح كثيرا من أغلاط الفكر ، وأضاف الى تراث العقول ثروة لا يستغنى عنها بسواها ، وأدرك كثيرا ما لم يكن قبله معلوما لأحد »^٢ .

أظن أن هذا يكفي لأمثال شكري غالى . . . واذا كان لنا أن نقول له كلمة أخيرة . . . فإنا ننصح ان أراد الحديث مرة ثانية عن الاسلام ، أن يدرسه .

(١) ص ٢٢٩ .

(٢) ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

الشرقى :

الأرض ، بـيـنـون

الحديث عن الغزو الفكرى فى مسرحية سيمون •• المسماة
« جميلة » لعبد الرحمن الشرقاوى يحتاج الى مقدمة ••

نعم مقدمة •• ولو طويلة جدا •• بل ولو دراسة كاملة حتى
نجلو الغموض عن ادعاء التقدمية والتورية فى أدب الشرقاوى ••
وقد اخترنا قصة الأرض •• لأنه ما من قصة قد أحاطتها الدعاية
المقصودة بنحو غير الذى خلقت من أجله مثل قصة الأرض ، واذا
كان المرء يثاب رغم أنه •• فليس من العدل أن تثاب مثل هذه
القصة الرجعية ، بكل ما خلع عليها من صفات •

والأرض تمتاز بأنها من لون الأدب الرجعى الايجابى ••
اختارت جانبا واضحا من الصراع الطبقي الذى شكل تاريخنا خلال
سنوات ٥٠ - ٥٤ •

ولا شك أن لهذه الفترة خصائص اجتماعية وملامح طبقية
يجب أن تتحدد لتعرف على وجهها الحقيقى ، وحتى نستطيع أن

نضع العمل الفنى فى مكانه تماما على خريطة الصراع الطبقي ••
وقبل أن تناقش قصة الأرض ، يجب أن نتفق على نقطة بالغة
الأهمية ، وهى الزمن السياسى للعمل الفنى ، أهو زمن الأحداث
التي عاشها أبطال القصة ، أم زمن الأحداث التي يمشيها قراء
القصة ؟

عمل الفنان •• لكي يتميز عن عمل المؤرخ ، تتحدد أبعاده
بالظرف¹ الاجتماعى المحيط بصدوره ، فإذا تعرضت لمسئلة
اجتماعية مثارة بالفعل ، فهو متلبس زمنيا بتاريخ صدوره ، حتى
لو اختار أبطاله من شخصيات الماضى السحيق ، أو من الكواكب
الأخرى وبعد آلاف السنين •

فإذا افترضنا انقساماً سياسياً حول النظامين، الجمهورى والملكى
وظهر عمل فنى يدافع عن الملكية عند الفراغ ، فمن حقنا أن
نضيف هذا العمل بلا تردد الى ترسانة الملكيين المعاصرين، ولا يقبل
الاعتذار بأن العمل صادق تاريخياً ، وأنه يتعرض لفترة غير معاصرة
•• ونفس الشيء عن قصص ويلز وهكسلى التي تدور أحداثها بعد
مئات أو آلاف السنين !

فالفن عامة يصدر عن واقع اجتماعى ، كما تصدر الرائحة عن
الزهرة ، وكما تصدر الأحلام عن الجسم ، والفن الهادف بالذات

(١) الحمد لله •• شهد شاهد من أهلها بهذا الرأى فى معركة « الفنى ميران » بعد
أن كتبناه نحن باكثر من سنة •

انما يهدف الى التأثير فى الأحداث المعاصرة ، لا التاريخ أو تقويم
الماضى •

وقد اخترت الأرض ، كما قلت ، لأنها أكبر ادعاء لصاحبها
بالثورية ، وأخطر محاولة لتزييف الواقع الحى •• ولأنها تتخذ
جانبا صريحا ، وتنحاز الى احدى القوتين المتصارعين فى لحظة حاسمة
وفاصلة من تاريخ الثورة •

الارض •• قصة رجعية اختارت جانب الاقطاع ضد الفلاحين
•• جانب الحزبية ضد الشعب •• جانب الديمقراطية الشائبة ضد
الثورة الاجتماعية •

القصة اسمها الارض •• وأبطالها هم الفلاحون •• وموضوعها
هو النظام السياسى فى مصر •

وهى لا تطالب بالأرض للفلاحين •• ولا تنهجم النظام
الاجتماعى ، بل وجه من وجوهه السياسية ، وهى تدعو لوجه آخر
لنفس النظام ، الوجه البرلمانى ، وجه دستور ٢٣ •• وجه الحكم
الوفدى •• ومتى ؟ بعد ثلاثة أسابيع من حل حزب الوفد !

تلك هى القضية التى تثيرها •• فما أدلتنا ؟!

لنبداً أولاً بتحديد أبعاد المعركة التى دارت فى مصر فى زمن
القصة (الزمن الحقيقى) من ١٥ يناير ١٩٥٣ الى يونيو ١٩٥٣ ثم
الى يناير ١٩٥٤ بالاضافات وصدورها فى طبعة كاملة •

كانت بلادنا تعيش في ثورة اجتماعية ، ظلت تتجمع لسنوات عديدة ، ولكن التحرك الثوري المتصل ، أو الحرب الثورية ، بدأت مع وصول الوفد الى الحكم في مطلع عام ١٩٥٠ . . كان الوفد هو أجمل واجهات النظام الملكي وأقوى أسلحته ، وباستدعائه للحكم ، أو بمعنى أصح بالسماح له بالوصول الى الحكم ، كان النظام يهدف الى ستر بشاعته ، ولكن ارتباط الوفد بالنظام ودفاعه عن مخازيه ، فضح الواجهة المزركشة وتلم السلاح الأخير . . وأحرق جميع الكبارى . . ولم يعد أمام الشعب الا الثورة .

وفي ٢٦ يناير ١٩٥٢ نشبت الثورة ضد النظام كله بما فيه حزب الوفد الذي أعلن الأحكام العرفية - قبل سقوطه بساعات - ليمنع قلب نظام الحكم على حد تعبيره . . وفي ٢٣ يوليو انتصرت الثورة بممناها الحرفي بانتقال السلطة من يد الرجعية الى الشعب . وكما لا يعني تحديدا لبداية الثورة بوصول الوفد للحكم ، انكار التطورات الثورية التي سبقت هذا التاريخ ، كذلك لا يعني حديثنا عن انتقال السلطة الى الشعب في يوليو ٥٢ انتهاء الكفاح ضد الرجعية بعد هذا التاريخ .

بالعكس لقد خاضت الثورة أعنف وأخطر معاركها بعد انتقال السلطة للشعب ، في الفترة من ديسمبر ١٩٥٢ الى مارس ١٩٥٤ ، في صراعها ضد الأحزاب . . ضد الحلف الرجعي الذي تزعمه الوفد وجند له خصوم الثورة من الشيوعيين . . الى تجار المخدرات .

الثورة الاجتماعية التي بدأت في مصر ١٩٥٠ ، وانتصرت في يوليو ٥٢ وأكدت استمرارها في مارس ١٩٥٤ هي في جوهرها ثورة فلاحين .. ثورة اشتراكية ، تبدأ بتحرير الغالية العظمى من الشعب .. أي الفلاحين ، تحريرهم قبل كل شيء من الاستغلال الاقطاعي .. بتصفية الاقطاع ، بنقل ملكية الأرض من الأقلية التي تملك ، الى الأغلبية التي لا تملك .. الثورة هي تملك الأرض للفلاحين ، وتجريد الطبقة الاقطاعية الخائنة عدوة التقدم والديمقراطية ، تجريدها من قاعدتها الاقتصادية بنزع ملكيتها الاستغلالية ، ملكيتها الاقطاعية .

والثوري هو من يدعو الفلاحين الى المطالبة بالأرض ، من يجمع الفلاحين ويشيرهم للمطالبة بالأرض ، لا الأرض التي في أيديهم . فالفلاحون - كما يراهم الثوري - لا يملكون أرضا في ظل الاقطاع ، بل الأرض التي يملكها الاقطاع .. تجنيد الفلاحين للمطالبة بنزع ملكية الاقطاعيين .. هذه الملكية التي يحميها رجل الشرطة غفيرا كان أو هجانا .. والعمدة والمركز والمديرية .. والقضاء .. والحكومة .. والبرلمان .. والوفد .. والدستور .. والملك . وخلف ذلك كله جيش الاحتلال .

والثورة تكتمل عند ما يتم هذا الربط في وعي الفلاحين ، الربط بين النظام الدستوري والاستغلال الاقطاعي ، بل تبدأ الثورة.

باسقاط النظام الدستوري ، لذا فلا بد من ان يصوب النوار نيران مدافعهم على النظام الدستوري في أكمل صورة •

ليس الثوري هو من يهاجم تزييف الانتخابات ، بل من يهاجم نظام الانتخابات في جميع صورته في ظل النظام الاستغلالي ، ويدعو الى حرية التصويت من خلال تحرير الفلاح من التبعية الإقطاعية •

ليس الثوري من يهاجم تعطيل الدستور ، بل من يشجب الدستور ، ويعارضه ، لأنه يحمي النظام الاجتماعي الاستغلالي •

الثوري في ظل ثورتنا من ٥٠ - ٥٤ هو الذي يهاجم حكومة الوفد وبرلمان الوفد المنتخب في انتخابات تسمى حرة ، لأنك باسقاط أجمل واجهات النظام الرجعي ، تسقط جميع أوجهه •

أما الذي يهاجم حكومة السعديين والدستوريين أو ما كان يسمى بحكم الأقلية فهو على أحسن الفروض اصلاحي يتطلع الى شكل أفضل من أشكال الحكم الرجعي ، علما بأن حكومة الأغلبية المزعومة ، لم تكن تمثل في انتخابات ١٩٥٠ أكثر من ٥٪ من الشعب المصري اذا كان التصويت في ظل الاقطاع يمثل شيئا •

كان التطبيق الحرفي الأمين لدستور ٢٣ يضي حكومة وفدية ، وكان وجود الوفد في الحكم يعني أن اعلام دستور ٢٣ ترفرف على النظام •• ولكن حكم الوفد الدستوري وحكم الأقلية لم يكونا الا وجهي عملة واحدة •• هي النظام الاستغلالي الإقطاعي •

وإذا كان الدفاع عن الوفد فى ظل النظام الرجعى «اصلاحية»
فإن هذا الدفاع يتحول الى خيانة بعد سقوط النظام وحل الوفد بعد
أن رفض قبول الاصلاح الزراعى ..

وليس المجال هنا مجال مناقشة دستور ٢٣ بالتفصيل .. ولكن
يكفى أن تعرف أنه صدر بناء على اقتراح لجنة ملنر لتشكيل حكومة
منتخبة توقع معاهدة مع بريطانيا تعترف بشرعية احتلالها لمصر ..

وقد رفض الوفد عندما كان ثوريا - ويجب أن نفهم أن ثورية
الوفد لم تتخط أبدا حدود الاستقلال الوطنى - رفض الوفد
الدستور ، وقاوم اللجنة التى شكلتها السراى والانجليز .. وسماها
سعد باشا لجنة الأثقياء، وقاطعتها كل الجمعيات والأحزاب، والهيئات
الوطنية ، ولكنها وضعت الدستور الذى وصفه سعد نفسه بأنه « على
كثير من المبادئ الرجعية » .

ولأن الوفد حتى ١٩٣٦ كان يعارض توقيع المعاهدة مع الانجليز
فقد كان الشعب ينتخبه ، أو بمعنى أصح ، كانت البورجوازية
الوطنية فى الريف والمدينة ، تسوق الشعب لانتخابه .. وكان
الانجليز يقللونه .. ذلك هو لب الصراع الدستورى الذى جرى
من ٢٤ الى ٣٥ .. فلما وقع الوفد المعاهدة فى ١٩٣٦ انتهت أزمة
الدستور ، وأصبح تزيف الانتخابات عملا روتينيا ، يمكن لأى
حكومة أن تجريه وبلا معارك أو صدام .

لم تكن هناك انتخابات حرة بالمعنى الثورى .. بمعنى حرية
الناخبين فى الاختيار .

لم تكن هناك معركة اجتماعية حول الدستور، بمعنى أن الحكم
الدستورى لم يكن يعبر عن مصالح الفلاحين ، بل بالعكس كانت
كل الحكومات تحمى الاقطاع ، وفى مقدمتها الحكومة الدستورية
التي تحمى الدستور وتتمسك به .. الدستور الذى وضعه ١٣
بيكا و ١٦ باننا .. والأفدى الوحيد فيهم كان الحاخام ناحوم أفدى .
.. الدستور الذى نص على حماية « النظام الاجتماعى » .. وحق
الملكية المقدس .

ولتسمع كلمات الرئيس عن الديمقراطية والدستور فى
الميثاق :

« ان حرية رغيف الخبز ضمان لا بد منه لحرية تذكرة
الانتخابات » .

« ان واجهة الديمقراطية المزيفة لم تكن تمثل الا ديموقراطية
الرجعية » .

« لقد صدر دستور سنة ٢٣ منحة من الملك ، ومنه منه
وتفضلا » .

« ان البرلمان الذى أقامه هذا الدستور لم يكن حاميا لمصالح
الشعب ، وانما كان بطبيعته حاربا للمصالح التى منحت هذا
الدستور .. »

« ان حق التصويت فقد قيمته حين فقد اتصاله المؤكد بالحق
فى لقمة العيش »

« فى الريف كان التصويت اجباريا للفلاح لا يقبل المناقشة ،
فلم يكن يملك الا أن يعطى صوته للاقطاعى صاحب الأرض ، أو
وفق مشيئته ، أو يواجه تبعات العصيان ، وأولها أن يطرد من
الأرض التى يعمل فيها بما لا يكاد أن يكفى لسد جوعه .. »

« اشتراط تأمين نقدى باهظ صد جماهير الشعب العامل حتى
عن مجرد الاقتراب من لعبة الانتخابات ، ولم تكن الالعبة فى تلك
الظروف .. وفى نفس الوقت فان الجهل الذى فرض على الأغلبية
العظمى من الشعب - تحت ضغط ظروف الفقر - جعل من سرية
الاقتراع - وهى أول الضمانات لحرية - أمرا مستحيلا أو شبه
مستحيل .. »

« ان الديمقراطية السياسية لا يمكن أن تنفصل عن
الديموقراطية الاجتماعية .. ان المواطن لا تكون له حرية التصويت
فى الانتخابات الا اذا توفرت له ضمانات ثلاثة .. أن يتحرر من
الاستغلال فى جميع صوره ، أن تكون له الفرصة المتكافئة فى نصيب
عادل من الثروة الوطنية . أن يخلص من كل قلق يهدد أمن
المستقبل فى حياته .. »

وهكذا يمكننا أن نرسم خريطة الثورة المصرية على النحو
الآتى :

من ٥٠ الى ٥٢ :

رفع شعار « الأرض للفلاحين » ، وتأكيد حرمان الفلاحين
من الأرض ، واستئثار الاقطاع بها ، والدعوة الى توزيعها ••
فضح النظام الدستورى ، واقناع الفلاحين بأنهم لن ينالوا
الأرض بالانتخابات ، ولا بالدستور •• بل بالثورة •

من ٥٢ الى ٥٤ :

مقاومة حلف الرجعية الداعى الى تصفية الثورة بالدعوة ائى
الديمقراطية ، وذلك برفع شعار الأرض ضد شعار « الانتخابات
الحررة »

تجميع الفلاحين حول مكاسب الثورة التى انتزعوها بتحطيم
ديمقراطية الرجعية ودستورها الرجعى ؛ دستور ٢٣ •

تفتت مقاومة حزب الوفد ، الداعى الى دستور ٢٣ لتصفية
الثورة ، وتعميته وكشف زيفه ، وتضليله للفلاحين ، وعدائه
التاريخى لشعار توزيع الأرض منذ ثورة ١٩ الى أن رفض اقرار
قانون الاصلاح الزراعى فى مفاوضات الثورة معه قبل حله •

فماذا فعل كاتب « الأرض » بعد خمسة أسابيع من إلغاء ثورة الشعب للدستور .. وفى صحيفة الوفد المنتفع الأول بالدستور ..؟!
بدأ فى نشر الحلقة الأولى (١٥ يناير ١٩٥٣) من قصة دستورية .. مذكرة دفاع وراثاء للدستور .. أشبه بمرنية انطونيو فوق جثة قيصر .

قصة ردد فيها كلمة الدستور ١٨ مرة ، وفى صفحة واحدة ٨ مرات وفى أربعة أسطر ٣ مرات !

الدستور .. الدستور .. الدستور .. هو كل ما يطالعك من قصة تحمل اسم « الأرض » ..

« ان رجلا اسمه صدقى يحكم مصر بالحديد والنار بعد أن ألغى الدستور لحساب الانجليز ' »

كأن الدستور نفسه لم يكن لحساب الانجليز وبمشيئتهم واقترحهم . الدستور الذى نص على أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة .. وهى مستعمرة لبريطانيا ..^٢

« فلاحين سجنوا وضربوا فى المركز من أجل الدستور » .

(١) ص ١٧ .

(٢) قد يقبل من المؤرخ تسجيل تدخل الانجليز لإلغاء الدستور ، اما فى قصة هادفة وبعد أسابيع من إلغاء الدستور .. فهو تحيز فاضح للدستور الملغى ، واثارة مفضوحة ضد الذين ألغوه ..

« الشيخ يوسف نزعت منه ملكية نصف فدان بعد ذهاب الدستور »^١ *

لم يجد من يقول له أنه بذهاب الدستور نزعت ملكية أسياذ الدستور ، لا ملاك النصف فدان *

والكاتب الهادف يعنى ماذا يفعل ، انه يلخص جميع مشاكل القرية ..

فى اختفاء الحكم الدستورى ، فى قيام حكومة غير دستورية ، فى تعطيل حق الانتخاب *

« حكومة حزب الشعب التى أرسلت رجالا يفصبون الفلاحين على انتخاب رجالها .. هى التى تحرم الفلاحين من الماء »^٢ *

« ان الفلاحين يعرفون بتجاربيهم وحدها ، أن الحكومات التى تعتمد فى الانتخابات على رجال المركز ! هذه الحكومات نفسها هى التى تمنح الباشا دائما كل ما يريد .. »

« ويعرف الفلاحون مع كل هذا ، أن الحكومة التى لم يكن للباشا عليها كلام نافذ قد أجرت الانتخابات عليهم هم الأحياء »^٣ *
وهذا كذب ..

(١) ص ١٩ .

(٢) ص ٧٤ .

(٣) ص ١٨ .

الفلاحون يعرفون .. وكان واجب الفن الهادف أن يعرفهم
أنه قبل يوليو ١٩٥٢ لم تقم في مصر حكومة واحدة ، لم يكن للبائنا
عليها كلام نافذ .. لا فرق بين حكومة دستور ٢٣ ودستور ٣٠ من
هذه الناحية .. كلاهما يمثل حكم باشاوات الأقطاع ..

والحل عند مؤلف « الأرض » هو عودة الدستور .. العصا
السحرية التي تحل جميع المشاكل ، والتي تجلب الخير والرخاء ،
بل حتى « البقالة المفتخرة »

« الناس يدركون أن الحرية هي التي توفر الطعام ، وأن
الدستور هو الذي يضمن الحقوق ، وأن اختيارهم الحر لمن
يحكمون ، هو الذي يضمن شروطا انسانية للحياة .

لو أن مؤرخا أراد أن يؤرخ وجهة نظر الرجعية في معركة
١٩٥٤ .. لما وجد أفضل من تلك السطور التي كتبها عبد الرحمن
الشرقاوى في لسان حال الرجعية .. صحيفة المصري .

وواضح أنه المفهوم العكسي لثورتنا .. منطق الرجعية
المغلوط .. ثورتنا تؤمن بأن الطعام هو الذي يوفر الحرية ، وأن
توفير الشروط الانسانية للحياة هو الذي يضمن الاختيار الحر
ويكفل الحقوق ، ويشكل مواد الدستور .

وقد يبدو أن هذا الكلام قضية مسلم بها اليوم بعد أن نص

عليه الميثاق ، ولكن نصوص الميثاق هي ثمرة المعركة التي دارت في ٥٢ - ٥٤ . . والتي كان طرفاها : الثورة التي تؤمن بارساء الديمقراطية على قاعدة من العدالة الاجتماعية توزيع الأرض على الفلاحين هو لبنتها الأولى . . والطرف الثاني كان التحالف الرجعي مع فلول الشيوعيين الذين كانوا يريدون ضرب الثورة برفع شعار الديمقراطية . . والذين كان يترهم الاستيلاء « غير الدستوري » على ملكيتهم الاقطاعية .

وكان التحالف الرجعي يعتمد على اخفاء طبيعة المعركة ، وطمس جانبها الطبقي ، بدفن شعار توزيع الأرض على الفلاحين . وكانت الرجعية وأذنانها من الماركسيين يعرفون أن جند الثورة هو الفلاح الفقير الذي حرم من الأرض حتى ملكتها له الثورة . . لذلك يصب مؤلف « الأرض » حقه على من لا أرض له (!!) فالقصة التي تحمل اسم الأرض ، أبطالها جميعا ملاك . . تتزع الحكومة الاستبدادية غير الدستورية « المعادية للوفد » . . « أرضهم » . . وأذنان الرجعية عملاء الحكومة ، هم الذين لا يملكون !

الشيخ الشناوي رجل الدين الذي صب عليه الكاتب « المتحرر » جام غضبه وحقه بطريقة خالية حتى من شكليات الفن ، فضلا عن الذوق في معالجة رجل دين حتى ولو كان رجيا . . سيدنا هذا « لو كان يملك قيراطا واحدا على الأقل لآمن أن الحكومة - لا الله - هي التي تحرم الفلاحين من الماء . . ولتأكد أن الحكومة وحدها

(لا النظام الاجتماعى ولا الاقطاع كطبقة) هى التى تصنع المصائب ' •

« لم يكن الشيخ الشاوى يملك فى كل أرض القرية غير المقبرة » •

ان الذين يملكون أرضا فى القرية يضعون أيديهم فى النار، أما سيدنا فهو كخضرة (المومس) يده فى الماء •

« شعبان رجل ضائع ليس له فى القرية أرض » •

لذا فهو عميل الرجعية مخرب للكفاح ضد الحكومة •

حتى الخدم فى القاهرة لهم أرض فى البلد ، وعندما يريد أن يجتذبهم للعمل ضد الحكومة يذكرهم بالملكية •• « والقيراطين بتوع أبوك ما هم حيروحو » •

وبطل القصة عبد الهادى « يقف الى جوار الأرض التى يملكها هو والتى ورثها عن أبيه •

بل ان الثورية والوعى ، تتناسب فى القصة طرديا مع الملكية ، يعكس المفهوم الماركسى ، ولكن الماركسية فى عالمنا العربى كانت

(١) ص ٩١ - ١٨٦ •

(٢) ص ١٢٤ •

(٣) ص ٣٠٩ •

تأمل كيف يقرر أن الحرية هى أساس ضمان لقمة العيش بعكس ما أفنى ماركس حياته فى اثباته •

تتمتع بصفات الحرياء ، فهي تتلون وفقا لمصالح الحلف الوقتى ، وكان الحلف الذى يسعى اليه فى ٥٣ - ٥٤ هو حلف يقوده ملاك الأرض ضد ثورة الفلاحين المعدمين .

والقصة حريصة على اخفاء الصراع الطبقي بين المعدمين والاقطاع ، حتى لتخلو من ذكر اقطاعى واحد ، بل تكتفى بشبح باشا لا يطمع فى أكثر من بناء قصر على سكة زراعية ، وحتى الأرض التى ستزعم من الفلاحين لا يستولى عليها الاقطاعى أو الباشا . . بل « تؤمم » باسم مشروع عام هو السكة الزراعية التى يستغل الباشا نفوذه على الحكومة غير الدستورية لجعلها تمر على أرضه !

القصة هى ملحمة بطولة . . يكتبها كفاح « ملاك » ضد حكومة « غير دستورية » . . تتزعم أرضهم !

« سكة زراعية تريد الحكومة أن تشقها غصبا عن أصحاب الأرض » .^١

« معظم الذين يملكون أرضهم فى حوض التربة يصبحون بلا أرض اذا نفذت الحكومة مشروع الزراعة » .^(٢)

(١) ص ٢٠٠ .

(٢) ص ٢٠٦ .

« والشباب يجب أن يشتركوا في مقاومة الحكومة غير الدستورية لأنهم سيرثون الأرض »^١ .

والحكومة غير الدستورية « تستولى على أرض الفلاحين لتشق فيها سكة زراعية يريدونها الباشا »^٢ .

« ياخذوا منا الأرض ازاى بقى يا حضرة الناظر .. ياخذوها ازاى »^٣ .

ياخذوا منا الأرض .. ما يمكنش أبدا »^٤ .

« لقد تفلح القوة الفاشية فى أن تنزع الأرض من الفلاحين »^٥ .

« ترشح محمد أبو سويلم على الأرض التى ظل راسخا عليها مدى خمسين عاما »^٦ .

هذه « أرض » المالكين التى يدافع عنها الشرفاوى ، وان كان يمكن لهذه القصة أن تثير حماسا ، فهى جديدة بأن تثير حماس الاقطاعيين للدفاع عن ملكيتهم ، لا أن تثير حماس الفلاحين الذين ملكتهم الحكومة غير الدستورية .. حكومة الثورة حكومة الشعب .. رغم أنف دستور الاقطاع الملغى .

(١) ص ٢٤٢ .

(٢) ص ٢٦٢ .

(٣) ص ٢٨٥ .

(٤) ص ٢٧٥ .

(٥) ص ٢٧٢ .

(٦) ص ٣٩٧ .

ولولا أننا نلتزم في هذه الدراسة بالأدلة التي لا تتحمل التأويل ، لاستتجنا الكثير من رموز القصة التي تحكى كفاح ملاك ضد حكومة غير دستورية ، تتزع الأرض من أيدي الذين يعيشون عليها ، بينما تستطيع أن تلجأ الى طرق أخرى ، هي الاهتمام بالجسر فلا تتزع ملكية أحد .

وكان الوفد يدعو الى الضرائب التصاعديّة بدلاً من تحديد الملكية .

والحل الذي يقدمه المؤلف . هو عودة الدستور . «فالدستور يوفّر حق كل انسان في أن يعمل ، وحق الكلمة في أن ترتفع»^١ .

«لئن سقطت الوزارة وعاد الدستور، فسيعود محمد أبو سويلم شيخاً للخفر ، ويروج الناس»^٢ .

« شوف . . اطرد الانجليز ، واطرد حزب الشعب كمان ، ورجع الدستور . . والقطن يبقى عال»^٣ .

حتى بعد خروج الانجليز يريد عودة دستور الوفد !

وفي الأجزاء التي أضافها المؤلف للقصة ، والتي نشرت في

(١) ص ٢٠٦ .

(٢) ص ٢٦٨ .

(٣) ص ٤٢٠ .

(٤) ص ٢٧٨ .

صحيفة المصرى فى مطلع عام ٥٤ عندما كانت الرجعية تحلم بالنصر القريب ، وتصل بها أحلامها الى حد تسمية رئيس الوزراء الذى سيصنفى الثورة ويجرى الانتخابات الحرة ، وتكتب داعية لعودة الدستور • أى عودة الوفد •• فى هذه الأجزاء نجد أبطال القصة أكثر جرأة فى اعلان وفديتهم •

« مش اتو بتوع يحيا الوفد » ••!

فقال المحامى بطلاقة - ليسوا هم فقط ! دى مصر كلها •
« كلماتهم التى تضطرم فى الصدور وهم يرقصون على الهتاف
تحيا مصر •• يحيا الوفد » ^١ •
« يموجون ويرقصون فى نغم قاصف •• تحيا مصر •• يحيا
الوفد » •

ويختتم المؤلف قصته متمنيا لقرئته داعيا لها ، معرضا بالقصة الرجعية «زينب» لمؤلفها « الحر الدستورى » هيكل •• بينما يثنى على « الأيام » •• ربما لأن مؤلفها وزير وفدى سابق !

تمنيت لو أن قرئتي هى الأخرى بلا متاعب كالقرية التى عاشت فيها زينب •• الفلاحون فيها لا يتشاجرون على الماء والحكومة لا تحرمهم من الرى ولا تحاول أن تنتزع منهم الأرض ^٢ ••

(١) ص ٣٣٦ •

(٢) ص ٢٧٤ •

(٣) ص ٣٤٤ •

«لم تذق قرية زينب اضطراب مواعيد الري ، ولم تجرب بون الخيل يصب في الأفواه » •

وحديث عن الحصوة في الكلي والبلهارسيا •• ولكن •• أهدر حقا هي متاعب قرية عبد الرحمن الشرقاوى •• أخلت قريته من أس البلاء الحقيقي ، ومصدر شقاء الفلاحين؟! لماذا خلت قريته وحدها من الاستغلال الاقطاعى!؟

قرية عبد الرحمن الشرقاوى فى أحسن الفروض تشكو الفقر والاستبداد السياسى •• لا الاستغلال والظلم الاجتماعى •
وهكذا نرى أن قصة « الماء والسكة الزراعية » لا الأرض •• قصة رجعية فى اخفائها مشكلة الفلاحين الأولى •• وهى توزيع الملكية • وكذلك فى دفاعها وتمجيدها لحزب الوفد رأس الرمح فى معسكر الرجعية حتى مارس ١٩٥٤ •• وفى اشادتها بدستور ٢٣ الرجعى •• والذى كان الغاؤه هو شرط نجاح ثورتنا الاجتماعية •• رجعية فى دفاعها عن الديمقراطية الشكلية وجعلها مقدمة للرفاهية أو حتى العدل الاجتماعى ؟ بينما آمنت ثورتنا وعلمتنا تجاربنا أن العكس هو الصحيح •

جميلة .. أم سيزن ؟

هذا الكتاب الذى عريناه من تقديمته المزعومة ، ووضحنا أن أهم « ادعاء » له بالثورية : قصة الأرض ، ليست إلا عملا رجعيا معاديا للثورة •• اصلاحية دستورية •• تعادى الثورة والفلاحين •• وتعارض شعار توزيع الأرض وتصفية الاقطاع ، وتدافع عن حكم الوفد الاقطاعى •

هذا الكتاب •• أين موقعه من طابور الغزو الفكرى •

الحق انه يأتى فى مقدمة الصف •• بل رائد من رواده •• وهو لا يسرب فلسفة الغزو فى مناقشة القصص أو الجنس ، أو الاشارة بسلامه موسى كما يفعل الصغار الآخرون •• بل يعتمد الاصابة فى القلب مباشرة •

اختار أعظم نصر اسلامى •• منذ صلاح الدين •• ليكيل نه الطعنات ••

اختار معركة الجزائر العربية الاسلامية ليكتب عنها

مسرحية جميلة *

فماذا أراد عبد الرحمن الشرفاوي بمسرحية جميلة ؟ .. هل
أرادها مأساة اسلامية ؟ مأساة اضطهاد صليبي دام مائة وثلاثين عاما،
ومارسه كاثوليك .. وملاحدة .. وشيوعيون ..

كلهم حكموا الجزائر ، وتمسكوا بالجزائر ، التي شعار
مدينتها صليب متصفر وهلال منكس منهزم !!

هل أرادها مأساة عربية ؟

مأساة شعب عربي يحرم عليه النطق بلسانه لكي تمحي قوميته،
ويندثر دينه ..

لا ..

أرادها الشرفاوي مأساة جزائرية كما سماها بالضبط *
لا عربية اسلامية ..

ومع ذلك * فهل نجح حتى في هذا الاطار الضيق ، هذا
الاطار الرجعي الذي يتمشى مع المخطط الاستعماري ، الذي نادى
عشية النصر .. بالجزائر جزائرية .. لا فرنسية ولا عربية *
كلنا نعرف أن المعركة الجزائرية في مراحلها الأخيرة ، كانت

(1) ص ٣ عدوان المسرحية *

بين الاستعمار الجديد الذي رفع لواء الجزائر جزائرية * * بعد أن
يُشس من شعار الجزائر فرنسية ، بأمل أن يقطع روابطها الحقيقية
بالوطن العربي الاسلامي * ولكي تقع بعد ذلك فريسة عاجزة في
المحيط الفرنسي * *

وبين الذين أرادوا النصر كاملا : نصرا يتوج بعروبة الجزائر
واسلامها * * فمن أجل هذا الهدف وحده مات مليون شهيد *

المؤلف يستعرض في اهدائه ، أهداف المقاتلين الجزائريين ،
وهو يستعرضها على سبيل الحصر لا على سبيل المثال * * فيقول :
« الحرية والاخاء والأمن والحب وحياة أفضل * * »

لم يذكر لهم من أهدافهم * * العروبة والاسلام * * لا الوحدة
العربية * * ولا العودة الى محمد * * لحن الجزائر الحبيب بعد
الاستقلال *

جعل لهل أهدافا تصلح للفرنسيين أو المنغوليين * *
وهو هنا يعكس تفكير الدوليين ، حيث يتصارع المطلق مع
المطلق * * الا أنه أيضا يطمس أهدافنا الكبرى * ويجرد معركة
الجزائر من مضمونها الأصيل الذي أصبح كسيف آصف بن برخيا ،
يكشف من في قلبه زيف أو رياء * * كل من يخالط ايمانه
الشك * * أو يقول بلسانه ما ليس في قلبه *

معركة الجزائر كانت من الجانب الفرنسي .. معركة صليبية ،
يلعب الصليب فيها دور الرمز للمحتلين .. من طابع البريد ، الى
الأفلام التافهة مثل « اختطاف بن بللا » .. بل ان وزراء فرنسيين
لم يتورعوا عن أن يصفوا الحرب الجزائرية بأنها صراع بين الهلال
والصليب ..

وكان الاسلام هو المحرك الثورى والموحد للجماهير ، كما
يؤكد توار الجزائر .. الأكثر علما بنسورتهم من مؤلف
« جميلة »

والمرحبة كما كتبها الشرقاوى تصلح للعرض فى مسارح
فرنسا اذا نجحت فنيا - وهو موضع شك كبير ؛ لأنها فى الحقيقة
تخاطب الشعب الفرنسى ، وتجادله بحجج فرنسية ، ومنطق فرنسى
.. يهملها الدفاع عن شرف فرنسا ، والتقاليد النبيلة لفرنسا ..

وكان الأجدد لو سماها « سيمون » .. اذن لكان الاسم منطبقا
على الفعل . فسيمون العاهرة الفرنسية هى البطلة التى أرادنا أن
نصفق لها .. وأن نصفق لعناقها مع الجزائرية المسلمة .. هند !

سيمون العاهرة .. مات زوجها فى الهند الصينية .. وبعد
قصة خرافية عن سوء معاملة البيروقراطية لها ، جاءت الى الجزائر

(١) الذى يقيم فى شبرد كلما شرع فى تأليف ملحمة ثورية .

لتطعم ابتها ، وهى حاقدة على الذين غرروا بزوجها وقتلوه ..
لذا تساهم فى أعمال جيش التحرير ، بل تقوم بأهم عمل ثورى فى
المسرحية^٢ .. ولا يفوت المؤلف أن يجعلها تنشد !

« من أجل فرنسا ما أصنع »^٣ !!

والمفروض أن تلتهب أكف النظارة فى هذا الموقف .. فلماذا
حرص المؤلف على أن يدفعنا الى التصفيق لفرنسية .. من أجل
فرنسا ما تصنعه ؟ ربما من فرط اسائته .. ومن أجل التأخى
الفرنسى - الجزائرى !؟

ثم تتعاقب هند وسيمون^٤ .. وذلك شىء لم يحدث ..
والمفروض أيضا أن يستدر هذا الموقف تصفيق النظارة .. فنصفق
لعناق عربية وفرنسية .. ولقد مات مليون شهيد لكى تنتزع الجزائر
العربية من أحضان العاهرة الفرنسية ، حتى لو أخفت عهرا فى
جئلة مثلثة الألوان ، يسارية ، فاضحة ، ومفضوحة ..

وهل صحيح أن عاهرات فرنسا ، لعبن دورا .. أى دور !
فى تحرير الجزائر ، فضلا عن أن يكون دورا عظيما الى هذا الحد ..
جديرا بتسجيل الفنان العربى .. المفروض فيه الثورية !؟

(١) ص ١٥٥ .

(٢) ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٣) ص ١٥٣ .

(٤) ص ١٥٩ .

نحن لا نتوقع ، ولا نريد من فنان عربي ، أن تقتصر مهمته على تسجيل التعذيب الذي عاناه الوطنيون في الجزائر ، والدفاع عن عدالة قضيتهم •• فحسبنا في هذا شهادة غير العرب ، ومنهم عدد مشكور من الفرنسيين ••

ان الثورة الجزائرية لا تحتاج الى تبرير •• على الأقل عندنا نحن العرب •• ولكننا نتوقع من الفنان العربي ونطالبه بكشف المضمون الحضاري ، والمغزى القومي لثورة الجزائر •• وأن يزيد عداة الوطنيين للفرنسيين ، ويشحذ حججهم للفتك بهم •• لا اثاره العطف عليهم •• لأنهم يساقون الى حرب لا يريدونها •• وتتنافى مع تعاليم دينهم !

القضية ليست أبدا قضية الدفاع عن شريعة المسيح •• أو تشير بالكتلثة •• انها حرب صليية ••

وانارة علاقة أخوية بين القاتل والمقتول لا تفيد سوى القاتل •• ومعرفة المقتول بأن الجلاد ليس سوى أداة ، لا تفيده بشيء ، ولكنها تسهل مهمة الجلاد ••

نعم ؟ •• ما المصلحة في اثاره العطف على الفرنسيين الذين يقاتلون بدافع الفقر والحاجة ، ويتم أطفالهم ، وجوع نساءهم •• أو تحت تأثير التضليل •• قد يقال هذا في محكمة ثورية عربية

لتخفيف العقوبة عن أسراهم •• ولكنه لا يقال في عمل ثوري
عربي ، المفروض أنه يخاطب المقاتلين العرب •

لقد حاول المؤلف أن يعتذر في كل مشهد عن الفرنسيين
البؤساء ، الذين يعانون أزمة ضمير وتناقض بين ما يفعلونه وبين
التعاليم المسيحية !

ولقد عاقب ستالين مؤلفا روسيا ، لأنه أشاد أثناء الحرب ،
بالكفاية الألمانية •• وقال ستالين «في الحرب» •• لا مكان للموضوعية ••
والحديث عن أخوة الفرنسيين والجزائريين ، قد يفيد في فرنسا ••
لأنها تفت في عضد الفرنسيين ، ولكنها خيانة عقوبتها الموت على
الجانب لعربي المقاتل من أجل استخلاص حريره •

لذا فهي محمودة من كتاب فرنسا •• لأنها هي المعتدية ••
ولأن المطلوب وقف عدوانها •• منكورة مذمومة من كتاب المعتدى
عليهم ••

ثم لماذا هذا الحرص المبالغ فيه على كرامة فرنسا ، وشرف
فرنسا ، ما دنا نخاطب الثائرين العرب •

جميلة تشيد بمقاومة فرنسا للهتلرية •

وفيرجيه : ولكي يرى الشعب الفرنسي المضلل •

(١) وان كنا لا نعاقب الاسرى •

(٢) ص ١٩٤ •

- جان : بل ها هنا وطنى فرنسا يمتهن ^١ •
- جان : اهدروا اليوم تقاليد فرنسا •• التقاليد النبيله •
- اننى أصرخ فى كل مكان ^٢ •
- انا نهدر تاريخ البطولات المجيده •
- وحتى فى التعذيب •• لا تنسى جميلة كرامة فرنسا !
- جميلة : من عذبنى فى سجنى تعذبا يزرى بكرامتكم •
- فيرجيه : انه صوت فرنى شريف •

والفصل الأخير هو فرنى يدافع عن جزائرية •• ! شكر الله
سعيكم •• اليسار الفرنسى لم يدافع عن الجزائر •• بل غرق فى
عار الاستعمار •• والذين دافعوا عن جميلة العربية •• جميلة
المسلمة •• هم أبطال جيش التحرير •• العرب المسلمون •

والحوار بين جان وبير •• وخطبة بير ^٣ •• لمن يوجه هذا
الحديث •• لنا نحن العرب •• وما الفائدة •• أم استعدادا لترجمة
المسرحية الى الفرنسية •• ان كان ذلك هو الهدف •• لنيل رضا

(١) ص ٢١٩ •

(٢) ص ٢١٢ •

(٣) ص ٢٠١ •

المنتدى الأدبي في باريس ؟ .. فلا بأس ، شريطة أن تواري النص
العربي ، كما نصح أبو الأسود الدؤلي ، ابن أخيه الصفيق^١ ..

تعالوا نقلب صفحات المسرحية *

ستروعا في البداية هذه العلاقة الأبوية بين جان الفرنسي
السفاح ومبروك الثوري الجزائري .. تخيل جان يرى مبروك
يخرج من جيبه منشورا ثوريا ليعلقه على الحائط فيها الضابط
الفرنسي كالجدة العجوز :

« مبروك ! هذا لا يجوز^٢ .. »

لا يا شيخ .. لو أن ضباط فرنسا كانوا بهذا الحنان .. لما
احتاج الأمر لمليون شهيد قبل أن تحطم أنياب الاستعمار المسعور ..
ويتطور جان بدافع من مسيحيته وضميره ، الى مدافع عن
الوطنيين ..

والمؤلف حريص على اثبات مسيحية جان ، وأنها هي الدافع
لسلوكه الطيب ، المتعاون مع التوار .. جان يرسم علامة الصليب
ويقول :

(١) سمح اللغوي العربي أبو الأسود الدؤلي ابن أخيه ينطق لفظا عربيا .. فتناه
عنه ، فرد ابن أخيه : هذا لفظ عربي لم تسمعه يا عمي .. فرد أبو الأسود
ناصحا : « كل لفظ لم يسمعه عمك فواره يا ابن أخي كما تواري السنور خرءها » .
(٢) ص ٢٧ .

يا يسوع ! لا تؤاخذني بما أخطأ غيري ^١ •
ويقول :

اني لأقسم بالمسيح

• بكل آلام المسيح •

• أنا لم أعذبهم هناك ولي خيار ^٢ •

سخط أن تناقش الجبر والاختيار في حرب ضروس •
وسخط أن نفكر ونحن نطلق النار •• أمجيرة تلك الرصاصه
المقبلة من الجانب الآخر •• أم حرة الارادة ••

« حيث المسيح يعود يصلب من جديد •• كل يوم ألف مرة »

هل يخاطبنا نحن العرب !؟ الجزائريون لا يؤمنون بأن المسيح
صلب •• ولا يفهمون هذا الرمز •• نحن العرب المسلمين لا يثير
فينا هذا الرمز شيئاً •

وأبطاله مسيحيون •• الفرنسيون يعتذرون للمسيح ويقسمون
به •• بينما المسلمون اذا حيوا بعضهم يقولون :

« السلام » •• لا « السلام عليكم •• »

• وهم أيضا يستشهدون بالمسيح والصليب •

(١) ص ٢١٣ •

(٢) ص ٣٦ •

« ومنى » عندما تستشهد فمن العهد القديم :

« زوج لوط عندما التفتت الى خلف غدت تمثال ملح ! » •

فترد زميلاتها المسلمات بسرعة فائقة :

هذا من العهد القديم !••

أما عندما يستشهد جاسر بأية قرآنية فإن جميلة تتساءل في

سداجة •• أو كأنها أبو جهل :

أأنت شاعر !؟

يا للوقاحة ••

صحيح أن جانباً من المثقفين الثوريين الجزائريين قد أفقدهم
الاستعمار لغتهم •• ولكن فرنسا لم تستطع أبداً محو الإسلام • بل
قهرها الإسلام •• قهرتها الكتابية التي علمت القرآن •• ومشايخ
الطرق الصوفية الذين حفظوا التراث الإسلامي •• قهرها « لا لا
خديجة » أعلى جبل في مناطق البربر • موسم سيدى بلال •• عيد
المساواة عند السود الجزائريين •• الإسلام قهر فرنسا •• وأعاد
الجزائر الى العروبة •

وإذا كان المؤلف حريصاً كل الحرص على إثبات مسيحية
الفرنسيين الشرفاء ، الذين ثابوا الى شرفهم •• فلماذا لم يلتزم الحياذ
ويبرز إسلامية الثوار ؟

• بالعكس •

لا اشارة جادة الى الاسلام •• بل لا يرد وصف الجزائريين
كمسلمين الا على لسان الفرنسيين ، من باب التحقير •• أما الثوار
فيحدثون عن أنفسهم دائما كجزائريين •• وعند الضرورة القصوى
•• واذا تحتم التعريف •• فكمرباً •

أما الصلاة والدين - الاسلامي فقط - فلا يذكره الا الخونة
عملاء الاستعمار ، أو الذين يعملون في خدمتهم ولو متكرين •

فالجاسوس هارون يقول :

لم لا تقوم لكي تصلي

هل سهوت عن الصلاة ؟

ويعود هارون الجاسوس يقول :

أتهين خلقة ربنا ؟

فيرد أحمد ، ممثل مصر ، هازئاً كثورى أصيل :

لا والنبي •• ادخل علينا كلنا ••

والغريب أن الذي عرف أذان العصر واستبشر به هو الضابط
(عزام) الذي يعمل في البوليس الفرنسي^٣ •• ربما كان ذلك

(١) ص ٣٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ١٨١ •

(٢) ص ٤٧ •

(٣) ص ١٨٧ •

جزءاً من تكبره .. أو راجعاً الى خدمة فرنسا التي تعلم المسلم
دينه !

وقد أشير الى الاسلام .. ووردت عبارة (الله أكبر) في
أماكن متفرقة من الرواية .. ولكن على أية نحو ؟

مرتان على لسان الجاسوس كما رأينا .. ومرة على لسان
المحامي الخائن عميل فرنسا .. بل المؤلف أنه هو وحده الذي
عرف المواطن الجزائري التعريف الصحيح :

« أنا مثلك عربى مسلم .. ومن حركتنا الوطنية »^١

فترد عليه جميلة في الحال بعد هذا التعريف :

بل أنت عميل متعفن !

ومرات على لسان هند .. ولكن بعد أن فقدت عقلها !

هند : الله أكبر ! هذا النداء الحر يدفع موكب الفجر

الجديد .

والمؤلف حريص جداً على أن يؤكد صفة الجنون عليها، فيتبع

ذلك بقوله :

ممثل النيابة : لا تأبهوا بصراخها الملتاث فهي مثله^٢ .

(١) ص ٢٣٠ .

(٢) ص ٢٤٦ .

وجميلة عندما تصرخ تقول : الله أكبر •• ولكن عندما تعود
الى وعيها وتحاجي معذبيها تقول :

سيدى !

ان رحمت يوما للكنيسة

وتطلعت لتمثال المسيح •• وهو فى تاج الشوك •

ففكر فى الذى عاش لنا منه

وفيما عاش من أعدائه^١

والمجنونة هند تقول :

من يوم أن ذبح الحسين وأهله فى كربلاء ••

لم تأت غاشية كتلك^٢

وأعترف •• أنى قد أعتتى الحيل فى فهم مغزى هذا الاستشهاد

الغريب •• هل يريد المؤلف أن يعتذر عن الفحش الفرنسى ••
يأنه ليس أكثر من تكرار لغاشية أخرى ارتكبتها المسلمون ضد بعضهم
البعض •

هل يريد المؤلف أن يدفعنا الى الاحساس بأن الظلم والقسوة
صفات انسانية عامة يرتكبها المسلمون والفرنسيون •• وأنه كما لم

(١) ص ٢١١ •

(٢) ص ١١٣ •

تمنع غاشية يزيد أخوة المسلمين ، ولا خلعتة من خلافتهم ، فكذلك
لن تمنع غاشية سوستيل أخوة جميلة وقتلتها؟!
غريب أن يكون ذلك هو التشبيه الوحيد الذى جاد به المؤلف
من التاريخ الاسلامى ؟

غريب •• أين وجه الشبه بين مصرع الحسين •• والاحتلال
الفرنسى الصليبي فى الجزائر؟

ثم بعض ألفاظ من باب العادة اللفظية مثل :

عاش لم يرج من الايام الا وجه ربه •

ثبت أيدينا يا رحمن •

ان كلمات أوزيجان هى أبلغ رد على محاولات اخفاء الاسلام،
محرك الثورة الجزائرية ، واستبداله بكلمات لا معنى لها ، مثل
الحب ، والأخوة والانسانية ، وحياة أفضل •• لكى يسدو المرء
رشيقا لطيفا أمام العالم المتمدين •• فعمار أوزيجان الثائر التقدمى
يقول :

« ان موقفنا ازاء الاسلام يختلف ، لأننا ثوريون ، مرتبطون
بالشعب •• ذلك أن رفض الايديولوجية الاسلامية فى بلاد مستعمرة،
يضطهد دين أكثرية سكانها الساحقة ، علامة تجدد أخرق ، تنادى
بها فئة منفصلة عن الشعب، غريبة الحياة والفكر ، امتصتها أو شلتها
أيديولوجية العدو المستعمر » •

أما عن الحساسية المفرطة لدور اليسار الفرنسى والحرص
الذى يثير الشك على وحدة الشيعين : الفرنسى ، والجزائرى .. فقد
تقدما أوزيجان فى رده الساخر على سكرتير الحزب الشيوعى
«الجزائرى» .

وكان سكرتير الحزب قد قال فى نقده لجهة التحرير :
« ينبغى القيام فى تواز مع النضال المسلح، بعمل دائم للتربية السياسية
بين صفوف الجيش الفرنسى ، وأوساط الشبان الفرنسيين ، وعلى
الخصوص بين أوساط العمال والفلاحين ، الذين أقحمهم الكذب
فى حرب ظالمة وضد مصالحهم ، وهذا يفترض موقفا أكثر دقة
وايجابية ازاء القوى التقدمية فى فرنسا » .

سخر أوزيجان من هذا الكلام .. وأثبت أن هذه كانت مهمة
«الحزب الشيوعى الفرنسى أولا .. ولكنه ، أى هذا الحزب ، كان
حريصا على منع الفاشية من فرنسا ولو باخماد ثورة الجزائر ..
ويتساءل أوزيجان فى سخريه .. « هل كان ينبغى لتحسين العمل
«اللاعنفى» - اللاحربى ، فى الجيش الفرنسى ، أن ندعو المفوضين
«السياسيين فى جيش التحرير الوطنى للانخراط بين صفوف الفرق
«المظلية والبحرية ، حيث الشبان الفرنسيون - عمالا وفلاحين -
كثيرون .. ولكن حيث لا يقبل العرب » .

يصف أوزيجان كلام الحزب الشيوعي بأنه هزر •• وأنه
دعوة لتقديم الثانوى على الأساسى •

ونحن بدورنا نقول : ان مسرحية جميلة لم تكتف بأن جعلت
من الثانوى محورا لأحداثها ، بل تعمدت أن تخفى الأساسى فى
قنبلة دخان وصوت •• لتعجب طبيعة الحرب الصليبية التى تشنها
فرنسا ممثلة الغرب الصليبي ضد الثورة العربية الاسلامية التى كان
شعب الجزائر كتيبة صدامها الباسلة •

الراهب اللائحة ..

مرت ثلاث سنوات ، أو أقل قليلا ، على ظهور مسرحية
الراهب ، وخفت دقات نواقيس المبشرين بمولد التراجيديا ..
المخلصة لآدابنا وفنوننا من خطيئتها ، وابتعدت صيحات « هلمويا »
يطلقها المنشدون : الفن المصرى قام . بمسرحية الراهب .. لا
بالحقيقة قام !!

وليسمح لنا المنشدون والمهللون بأن نقول كلمة فى المضمون
السياسى للمسرحية .. ما دام جهلنا الفنى لا يسمح لنا برؤية الروائع
خلف الفكرة الساذجة المطروقة .. فكرة الحب يسمو بالعاهرة الى
مصاف القديسين ، وبالراهب أو القديس الى مصاف الانسان .

لنقصر نقدنا على الجانب السياسى .. فهو الأهم .. ومسرحية
الراهب .. أولا وأخيرا .. عمل سياسى مباشر .. لا من ناحية توقيت

صدورها بل ان المؤلف قد تجاوز فيها الهمس الفنى الى الصراخ
السياسى ، عدمنا أكد أنه انما يتحدث عن مصر المعاصرة ، مصر التى
كان علمها أخضر وله هلال بثلاثة نجوم •• عندما جعل مارتا تقول :

مارتا : وهذا ما فعلت خرجت الى حديقة القصر لأستريح
وهناك رقدت تحت شجرة التين وأغفيت ، وفى نومى رأيت العذراء
•• فى رداء أخضر •• لماذا تعلموننا الخطأ ؟!

أبا نوفر : فى رداء أخضر ؟!

مارتا : نعم ، لم تكن فى رداء أزرق كما تقولون •• كانت فى
رداء أخضر وكان فى جينها هلال ، عليه ثلاثة نجوم •

هذه هى مصر التقليدية ، التى كنا نراها فى المسرحيات
المدرسية وكاريكاتير الصحف •

والمؤلف يريد أن يقول صراحة أنه يتحدث عن مصر المعاصرة ،
وأنه يثير قضية الحفاظ على اسم مصر فى المعركة الدائرة فى العالم
العربى حول الاقليمية والعروبة •• وأن حكاية بيزنطة وروما ليست
الا الجسر الرمزى (وان يكن قد تخطى التزامات الرمز) الذى
يعبر عليه بفكرته •

وفى الشتاء القارس لعام الانفصال ، عندما كان الرئيس يتلقى

للأسابيع بعد الانفصال •

ملايين الخطابات تطالب الحفاظ على اسم الجمهورية العربية المتحدة ورايتها العربية •• أراد المؤلف أن تظهر العذراء على المسرح بثوب أخضر ، وفي جبينها هلال وثلاثة نجوم •• ويسدل الستار وصوت شيو يقول :

« ستلقون في جب الاسود ، وتقلون في الزيت المغلى لتكروا اسم مصر ، فينكر بعضكم ، ويصمد الآكثرون ، حتى ينجلي هذا البلاء الفظيع » •

ولكن رفض مسرحية الراهب مرتبط برفض الكتاب الذي يجرى في نفس الخط ، والذي يمثل أوضح صور الغزو الفكري ، وهو « المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث » لنفس المؤلف وقبل أن تناقشه يجب أن نقول كلمة في الانتماء وموقف مصر بالذات من محاولات دمجها في متحد أكبر •• وموقفنا من أباتوفر عصر الشهداء وأباتوفر الحديث •

مصر •• كما أثبتت تجربة التاريخ - لا تعرف التبعية الروحية أبدا •• قد يحتلها الغزاة ، ويفرضون عليها حكمهم ، ويخضعونها لأشنع ألوان الاستبداد والقهر •• وقد تبدو في صورة المستذلة المستكينه •• ولكن روحها تبقى دائما أبدا مستقلة •• لا تبعها لسلطان ، ولا تستذلها فلسفة •• ولا تنحني لقوة •• اما أن تجبر خصمها على الانحاء لروحها فتصبغه بها •• واما أن تنأى عن قصر

الطاغية ، وتفر بها فى الصحراء ، وأكواخ الفلاحين ، وصوامع
الرهبان ، وحلقات الذكر فى المساجد •

إذا أراد الاسكندر المقدونى أن يضمها الى امبراطوريته فليقطع
الصحراء الى معبد كهنتها ليرسموه باسم آمون الهاء • وليتقبل صاغرا
طعنهم فى شرف أمه ، ويعترف بعدم نسبه لأبيه فيليب • • لأن كهنة
مصر أعلنوا أنه ابن لحظة غرام - بين اله المصريين وأمّه - وقعت فى
قصر أبيه •

ونسبه هذا هو سبيله الوحيد لكى يتوجه المصريون برضاهم
ملكا عليهم ويدخلوه فى تاريخهم •

أما قمىز فىستطيع أن يحتل مصر ، وأن يقتل العجل الذى
يعبده المصريون • • ولكنه يضل الطريق ، ولا يصل أبدا الى معبد
آمون •

وعندما جاءت روما • • انتحرت ملكة مصر حتى لا تسير فى
هوكب السبايا •

ولكن روما تريد أن تفرض التبعية على مصر •

وروما الوثنية يمكنها أن تضم الى متحف الآلهة فى المتروبوليتان
بضعة تماثيل لآلهة مصرية لتدور مصر فى فلك روما •

فماذا تعمل مصر لتنجو بروحها ؟•

• تنتصر •

تترك آلهتها ومعابدها • • أقدم المعابد • • وأقوى آلهة • تتخلي
مصر عنهم • • لأنهم تخلوا عن مصر •

• تنصرت مصر •

وبدأت المعركة • • آباء الكنيسة • • أجدادى • • حماة مصر
وروحها • خاضوا معركة باسلة ووحشية ضد التبعية لروما الوثنية •
كل شهيد منهم دماء دمائي • • وآلامه آلامي • • لأنه كان
يقا تل دفاعا عن روح مصر • • و ضد أن تفرض على مصر التبعية •
روما الوثنية لا سلطان لها على مصر • • ومصر النصرانية
لا تدين لروما بالولاء •

ولكن روما تنتصر ، فماذا تفعل مصر ؟ • • هل ترضى أن تكون
الكنيسة فى روما • • وليس لمصر الا أسقف تابع ؟ !

لا • • لتتسحق الكنيسة • • وليكن لمصر بطريركها ، ولتبقى
روحها مستقلة ، فلا تخضع أبدا لسلطان أجنبي •

وتقاتل مصر القبطية روما المسيحية • • وتسيل الدماء • •
ويرتفع الى سماء المجد آلاف الشهداء •

يفر آباء الصحراء الى أديرتهم • • نائين بروح مصر عن أن
تحركها سلطة خارجها •

ذلك هو التفسير الوحيد لترحيب نصارى مصر بالجيش العربى
المسلم ، واللقاء الأخرى بين عمرو بن العاص وبنيامين بطريك مصر
النصرانية •

لم يحس أقباط مصر أن الجيش العربى ، جيش غاز ، أو
أنهم ينتقلون من سلطان الى سلطان ، وليس المجال هنا بمجال
الحديث عن عروبة مصر قبل الاسلام ، واثبات أن مجيء عمرو بن
العاص ، الذى لم يكن الأول بالنسبة لعمرو ، لم يكن أيضا بالنسبة
لجيشه الا واحدة من سلسلة هجرات عربية الى وادى النيل قبل
الاسلام وبعده •

ومع الجيش العربى تحررت روح مصر •• استقلت كنيستها
الى الأبد •

أما الاسلام فهو لا يعرف التدرج الكهنوتى •• فليس فيه أن
مفتى بغداد أجل قدرا من مفتى القاهرة ، لمجرد أنه يقيم فى العاصمة
السياسية •

أحست مصر ، بمسئمتها ونصاراها ، بتحرر روحها ••
وغيرت مصر لغتها ، وتلت الأتجيل بالعربية ، واعتنقت غالبية شعبها
الاسلام •• ولم ترق فى هذا التغيير قطرة دم واحدة •• بينما احتلها
الأنراك •• عام ، فلم تغير حرفا من لسانها •• ولم تحس نحوهم
الا بالاحتقار •

وهكذا نرى أن اعتراضنا بمصر العربية المسلمة ، لا يعنى أبدا اغفالنا لعظمة النضال الذي شنه آباء الكنيسة المصرية ضد روما وبيزنطة .

• بالعكس

اتنا ندين لهذا النضال النبيل بحماية مصر من الفناء في روما ولولا هذا الكفاح الذي حمى جوهر مصر وأبقى على تميزها ، ما كان يمكن أن تقوم مصر العربية الاسلامية .

الذين قاتلوا دفاعا عن مصر القبطية قبل وصول جيش عمرو ، الذي حمى كنيستها من الخضوع لروما ، هم الآباء الشرعيون لمصر العربية الاسلامية .

القضية اذن ليست في اسم مصر . . بل في روحها .

ورغم نبوءة شيو في ختام مسرحية « الراهب » للدكتور لويس عوض ، فان أحدا من غزاة مصر لم يحاول أبدا أن يمنع اسمها . . وان حاولوا سحق روحها .

وانطلاقة الروح الحقيقية لمصر ، هي اليوم ، في عروبتها . . بقيام الوحدة العربية ، بقيام الجمهورية العربية المتحدة - من المحيط الى الخليج - يتحقق الوجود المصرى ، وان اختفت كلمة مصر . .

(١) ص ١٢٦ .

لأن العروبة هي الوجود الوحيد الممكن لمصر .. ولأن مصر في العروبة لا تنتمي ولا تتبع .. بل تحقق ذاتها وتحررها •

وآبا نوفر القديم .. آبا نوفر الذي قاتل روما ، وجاء من أعماق الصحراء حيث كان مختبئاً ، ليرحب بأخيه عمرو بن العاص ، لا يمكن أن يعارض الوحدة العربية ، بل تبتهج بروحه الخالدة وهو يرى علم مصر بهلاله ونجومه ، العلم الذي يحبه ونجبه ، وفديناه بالأرواح ، ستقر روحه كما قرت نفوسنا ، ونحن نرى هذا العلم يتتحي ليفسح مكاناً أعز وأرفع لراية أكبر ..

• هي راية العروبة •

لأن آبا نوفر عصر الشهداء قاتل روما الكاثوليكية ، ضد التبعية لروما .. فنحن معه .. ولأن آبا نوفر الآخر المسمى بالجنرال يعقوب عمل في خدمة الغازي القادم من باريس .. فنحن نلعنه ونلعن كل آبا نوفر يبشر بالتبعية الفكرية ، ويفتح ثغرة في حصوننا للفزو الفكري •

• وننتقل الى الجنرال يعقوب •

.. والجنرال الحائث !

« ديسيه !! ديسيه !! »

انهم يقيمون لك أثرا في فرنسا *

فيعقوب الذي كنت تحبه ويعزك كنفسه ، سيدفع ثلث نفقات
ذلك الأثر بمفرده بالغة ما بلغت *

وإذا بقى هذا الأثر شاهدا بأخبار الوقائع والحروب التي
خضت غمارها لاسترجاع الصعيد من أيدي المماليك واخضاعه ..
فسيعلم الخلف منه أن يعقوب حارب الى جانبك ، واستحق اجلالك
واعزازك ، وقد أخلص لك ووهبك فؤاده من زمن مضى » *

هذا الغزل .. بل الوله المخنث .. كتبه المعلم يعقوب أو الجنرال
يعقوب يخاطب روح ديسيه القائد الفرنسي الذي فتح الصعيد
وأغرقه في الدم *

وهذا يعقوب هو الذي يجعله الدكتور لويس عوض أول

من نادى باستقلال مصر .. وذلك فى محاضرات للدكتور بمعهد
الدراسات العربية التابع للجامعة العربية !

والجنرال يعقوب هو الذى كون فيلقا لمضرب الشعب المصرى ،
ومعاونة الاحتلال الفرنسى ، ثم خرج هاربا مع جيش الاحتلال ،
ومات على ظهر السفينة ، فوضعوا جثته فى برميل من الروم لينفدوا
آخر وصاياه الشاذة ويدفنوه مع ديسيه !

كان فى خدمة المالك .. ثم فى خدمة أغا الانكشارية سليمان
بك .. « فلما آس فيه الشجاعة ، وظهرت له قوته واستعداده ،
قدمه الى نابليون ، وأطرى له اخلاصه فقربه هذا اليه » .

« وقد نهض يعقوب وحده بأعباء تموين الحملة (حملة ديسيه
على الصعيد) والجيش المتفرقة على طول النيل » .

« ومن أعمال يعقوب الحربية مع الفرنسيين ، أنه كان ذات
يوم سائرا فى طليعة الجيش الفرنسى الذى يتحسس مكان العدو
.. وكان ممتطيا جوادا مع الفرسان » .

« كتب الجنرال مينو الى بوناپرت كتابا فى ١٠ برومير للسنة
التاسعة للجمهورية ما يأتى : انى وجدت رجلا ذا دراية ومعركة
واسعة ، اسمه المعلم يعقوب ، وهو الذى يؤدى لنا خدمات باهرة ،
ومنها تعزيز قوة الجيش بجنود اضافية .. لمساعدتنا » .

(١) الجنرال يعقوب (كتيب) .

ويعلق شفيق غريبال :

ونحن نسلم بأن هذه القوة كانت أداة من أدوات الاحتلال ،
وبأنه لولا هذا ما سمحت السلطات الفرنسية بإنشائها •

والجبرتي يقول أن الفرنسيين هم الذين شكلوا هذا الفيلق ،
وأرسلوا في طلب الأفراد له من الصعيد •

ويحكى الجبرتي « وفي خامس عشر ، سافر عدة كبيرة من
عسكرالفرنساوية الى جهة الصعيد وكيرهم ديزه ، وصحبهم يعقوب ،
ليعرفهم الأمور ، ويطلعهم على المخبات ' •

هو ، كما ترى ، رجل يعمل في خدمة الحكام ، تناقلته أيديهم
من الانكشارى الى المحتل الفرنسى الجديد • • حيث نبغ في العمالة ،
وتفنن في التتكيل بالشعب •

والعمل في خدمة الفرنسيين خيانة • • شرط أن نسلم بأن
الوجود الفرنسى فى مصر كان احتلالا واستعمارا •

فلماذا رأى الدكتور لويس عوض فى يعقوب بطلا وطنيا • • ؟

لأنه ببساطة يرى أن الحملة الفرنسية هى التى بعثت القومية
المصرية ، وهى التى أقامت فى مصر ، ولأول مرة ، مجلسا مصريا
للوزراء وأول برلمان مصرى ! ومعها كان ظهور بداية الديموقراطية

(١) الجبرتي ج ٣ ص ١٥ •

نظريا وعمليا ، بل ويسمى البيان الذى تلى فى الديوان •• أول وثيقة مكتوبة بين الحاكم والمحكوم ، لأول مرة فى بلاد لم تعرف الا الحكم الشخصى طوال قرون الترك والماليك •

هذا بالرغم من أن الدكتور قد شهد فى الصفحات السابقة بأن المصريين ثاروا على الماليك والوالى التركى قبل الحملة الفرنسية ، واستطاعوا انتزاع وثيقة مكتوبة ، فرمن عليها الباشا ، ووقع عليها ابراهيم ومراد •

ولم يفت الدكتور أن يصفها بأنها الأولى أيضا ! ويلاحظ الدكتور أن تلاوة فرمان الشروط هذا •• فى أول جلسة عقدها ، ما يسميه بالبرلمان المصرى ، كان بمثابة « اعلان لدستور البلاد وفيه معنى ارتباط الحاكم أمام نواب الشعب بأصول الحكم • أو فيه معنى الميثاق » (!)

وعندما يتلى على أعضاء الديوان انتصارات جيش الاحتلال فى أبى قير لهدف لا يخفى على أحد • يسمى الدكتور ذلك « تأكيدا لمسئولية الجيش أمام البرلمان » •

مسئولية نابليون أمام الشيخ الشرقاوى !! وهو يرى أن نابليون كان يحاول أن يقضى على كل نفوذ أجنبى فى مصر بعث الروح القومية فى المصريين •
بينما يروى لنا الجبرتى انهم قالوا « ان مملكة مصر صارت

في حكم الفرنسيين لا يشركهم غيرهم فيها .. هكذا قالوا وقرأوه
في ورقة في الديوان » .

وعندما يقتل سليمان الحلبي « كليبر » ، يشيد الدكتور لويس
عوض ، بالمحاكمة التي تمت ، بل ويعتذر عن ضرب المتهمين ليقروا ،
متعللاً بأن تعذيب المتهمين لاستخلاص الاعترافات منهم ، كان هو
العرف في مصر أيام الترك والماليك .

وهو نفس الاعتذار الذي أوردته مضابط المحكمة العسكرية
الفرنسية ، وهو اعتذار واه .. فأين اذن حضارة الحرية والمساواة
.. وهل جاءت لتحمي هذا العرف وحده ؟!

وفات الدكتور أن يعتذر عن استخدام أشنع طريقة اكتشفها
البرابرة أو التتار ، ونفذها الفرنسيون في القرن التاسع عشر ضد
متهم سياسي .. حرقوا يدهم حيا .. ثم أعدموه على الخازوق ، وهو
جهاز رهيب ينفذ في أحشاء الضحية بوصة بوصة .

وبدلاً من أن تخفق قلوبنا بالاعجاب للبطل الخالد سليمان
الحلبي قاتل كليبر قائد جيش الاحتلال .. يريدنا الدكتور أن نعجب
بعدالة المحكمة .. عدالة من ينتزعون الاعترافات بالضرب ..
ويحرقون الجسم الحي ، ويقتلون الناس على الخوازيق !

ويفسر الدكتور تاريخ الصراع في أثناء الحملة الفرنسية ..
بأن قوتين أجنبيتين كانتا تتصارعان .. الفرنسيون ضد الأتراك .

الجانب الأول كان يحمل مبادئ الثورة الفرنسية ، ويسعى لايقاظ القومية المصرية ، ويرسى قواعد أول برلمان ودستور ومجلس وزراء •• ويسعى الى اقرار المساواة أمام القانون ، وإدخال المدينة، وتحويل مصر الى دولة بوجوازية •• بل ويصف مشروع انشاء دواوين فى البلاد بأنه « بالغ الخطورة » وهو أن أول جمعية تأسيسية عقدت فى مصر أوصت أولاً بنظام حكم متقدم فى الحكم المحلى ، مما كان سينقل الفكرة النيابية الى أعماق البلاد ويثبثها فى كل أرجائها « ١ » •

أما الجانب الثانى فيختص بكل المواقف والصفات الكريهة • ثم يقسم زعماء مصر الى فريقين •• فريق يقاتل - بدافع من معتقداته - الاحتلال الفرنسى تحت راية الترك •• وفريق يقاتل - بدافع من معتقداته أيضا - تحت راية الفرنسيين •

يقول الدكتور : « وهكذا دفعت عمر مكرم معتقداته أن يقاتل الفرنسيين تحت اللواء العثمانى والمملوكى •• ودفعت يعقوب معتقداته أن يقاتل العثمانيين والمماليك تحت اللواء الفرنسى » ٢ •

فى الجانب الأول •• السيد محمد كريم وعمر مكرم والمحروقى وحسن طوبار وسليمان الحلبي •• وكل الذين تعلمنا أن

(١) ص ٣٨ •

(٢) ص ٧٣ •

نرى فيهم أبطال تاريخنا لأنهم أبطال مقاومة الحملة الفرنسية ••
الى أن ألقى الدكتور محاضراته في معهد الدراسات العربية ، هذه
المحاضرات التي لم تجمع بين القاتل والقتيل في كيس واحد كما
يقال •• بل جمعت الخيانة والشرف معا •

وفي الجانب الآخر •• الجنرال يعقوب وفرط الرمان •

وهكذا يضعنا الدكتور ، كما يظن ، بين المطرقة والسندان ،
فاما أن تغفر ليعقوب تعاونه مع المحتل الاستعماري ، وضربه الشعب
المصري ثم فراره • واما •• فكما تدين تدان •• تتهم عمر مكرم
بالخيانة والتبعية لتركيا !

بل ان الدكتور لا يضع الاثنين في كفة واحدة كما يبدو ••
فما دام الفرنسيون يمثلون الجانب الأفضل •• فان المتعاونين معهم
كانوا مع التطور •• مع التاريخ ، مع بعث القومية •• ومن ثم فان
كثير المتعاونين يعقوب •• هو حامل لواء مصر للمصريين •• حامل
بذور القومية المصرية •• صاحب مشروع لاستقلال مصر •• سافر
الى أوروبا ليدافع عنه •• ومن ثم يستحق أن يوضع في صف واحد
- كما يقول الدكتور - مع محمد علي ، وعلي بك الكبير ، وعبد الناصر !
لأنهم جميعا كانوا أدوات في يد هذا الشعب العظيم •

(١) ان الحكم الموضوعي يقول ان الجنرال يعقوب ومحمد علي وكل قائد أو زعيم شارك بجهده
في الكفاح من أجل استقلال البلاد من علي بك الكبير الى جمال عبد الناصر كانوا مجرد
أدوات في يد هذا الشعب العظيم ص ٧٧ -

وحقا •• كان يعقوب أداة •• ولكنه لم يكن أبدا في يد هذا الشعب العظيم ، بل في يد جيش الاحتلال ، لضرب هذا الشعب العظيم وابتزاز أمواله •

ووجهة نظرنا •• أن الحملة الفرنسية لم تكن الا غزوا استعماريًا ، ليس مبعثه نشر مبادئ الثورة الفرنسية ، بل حلقة في مأساة الغزو الغربي الصناعي ، للشرق المتخلف •• فالدكتور نفسه يروى كيف كان قنصل فرنسا الملكية يتصارعون مع بريطانيا على ربط مصر بمعاهدات ، قبل الثورة الفرنسية •

والحملة الفرنسية كانت تشكل خطرا على وجودنا ، وعلى قوميتنا •• خطرا كان من الممكن أن يصينا بأضعاف المتاعب التي عانتها الجزائر التي احتلتها فرنسا بعد ذلك بثلاثين عاما •

كان من المحتمل جدا ، لو استقر الاحتلال الفرنسي ، أن يصاب تطورنا القومي بضربة قد تعطله لأكثر من قرن ، أو أن تشوّهه ، كما حدث في العديد من البلدان التي ابتليت بالاحتلال في مراحل مبكرة من تكوينها أو نهضتها •

لقد استطاعت مصر أن تحمي جوهرها العربي خلال الاحتلال البريطاني لأنه تأخر قرابة القرن •• حتى اكتملت مقوماتها ، وتخطت مرحلة الطفولة التي تصاب فيها الأمم بشلل الاطفال •• اذا ما احتلها المستعمر في فجر حياتها •

والفضل الاول فى تجنيب أمتنا هذا المصير ، يرجع للوعى
الصادق الذى حرك جماهير شعبنا للقتال ضدالفرنسيين ، من شمال
الدلتا الى أقاصى الصعيد ، فى حرب وطنية شاملة •• لا نبالغ ان
قلنا انها لم تتوقف يوما واحدا ••

وكان الثمن ، عشرات القرى أحرقت بوحشية لم يعرفها
التار •
ومئات الالوف من الشهداء •• وملايين من الفرنكات الفضة
والذهب •

الحس الصادق لشعبنا ، وغريزته التى لا تخطىء أبدا ، دفعا
الى أن يهب لصد الخطر الأكبر على وجوده ، المتمثل فى الاستعمار
الأوروبى •• رغم الفحش التركى •

بل نستطيع القول أنه ما من احتلال أجنبى قد جوبه فى تاريخ
مصر الطويل بمثل هذا الرفض الاجماعى والمقاومة الشاملة العنيفة •
فقد كان احتلال مصر فى هذا الوقت المبكر خطرا على وجودها ،
وبالذات لأن الاستعمار الفرنسى يقوم على سياسة الدمج والفرنسة ،
بمعنى استئصال العروبة والاسلام ، لا المساواة القومية •

ولقد احتلت فرنسا الجزائر مائة وثلاثين عاما •• فهل بعثت
فيها قومية ، أو خلقت فيها نظاما ديموقراطيا ١٩ • فلماذا نفترض هذه
النوايا لاحتلالها القصير فى مصر من مجرد مشروعاتها وبياناتها التى
يصفها الجبرتى ، وبحق ، بالتمويه والضحك على العقول ١٩! والتى

تلقى الضرورة العسكرية عليها ظلا من الشك لا يخفى على أحد •
بل لعل أحدا لم يذكر المصريين بتبعتهم للباب العالي ، ويصر
على تأكيد هذه التبعية مثلما فعل نابليون في بياناته ومنشوراته ••
بل تنافس مع مراد بك و ابراهيم بك في اثبات الولاء لحضرة «سلطان
السلطين» •

« ونخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية
الطوائف الافرنجية دائما يحبون المسلمين وملتهم ويبغضون
المشركين ، وطبيعتهم أحباب لمولانا السلطان قائمين بنصرته » •

ويعنون على المصريين بأنهم أبقوا على « علقه » الدولة العلية •
هذه الدولة التي كان الشعب يرى ممثلا أضعف من الألعوبة
بين يدي المماليك •• يرسلون له أبو طبق فيطوى البساط أمامه
ويقول انزل يا باشا !•

فينزل الباشا ولا يطمع في أكثر من النجاة بروحه الى
اسطنبول •• حيث يبلغ سلطانه أنه خلع ، فلا يملك الباب العالي الا
أن يرسل للمماليك باشا آخر •

هذه الدولة ، التي أذلها وهزمها على بك الكبير ، وأعلن
استقلاله قبل الغزو الفرنسي بربع قرن •• والتي قاتل المماليك ، ثم
الشعب ، ممثلا ، فور الجلاء الفرنسي •

(١) الجبرتي ج ٣ ص ١ •

الاستقلال بمصر لم يكن اختراعاً عجيباً يحتاج إلى غزو فرنسي لكي يكتشف •• بل لا تغالي إن قلنا أن كل من حكم مصر واستقر في منصبه قد فكر في الاستقلال بها •

والرابطة مع تركيا لم تكن القوة يصد بها الغزو الاستعماري

فمنذ أن ظهرت سفن البرتغاليين عند الشواطئ الإسلامية ، وبدأ عهد الغزو الاستعماري •• كان لا بد للعالم الإسلامي من قوة عسكرية تحميه ضد المدافع الصليبية •• وكان الأتراك هم أقوى عناصر الأمة الإسلامية وأقدرها على القيام بهذه المهمة العسكرية ، فقامت خلافة آل عثمان •• واستطاعت حقا بقوتها العسكرية أن تؤخر احتلال الغرب للعالم العربي أربعة قرون •• ولكنها لم تستطع •• أو على الأرجح تسببت في تخلف العرب ، ومنعت وصولهم إلى عصر الصناعة •

وكان من المحتوم مع مطلع القرن التاسع عشر أن تنتقل القيادة إلى الأيدي العربية ، لتحقيق الانقلاب الصناعي ، وتذود عن الشرق خطر الغزو الأوروبي •• وهنا نرى على عكس ما يحدثنا الدكتور •• أن أوروبا المتمدية هي التي عملت على إبقائنا ضمن السيطرة التركية ، وسحقت أية محاولة جادة لانطلاق العرب نحو التطور الصناعي •

من الخطأ إذن تصوير الصراع بين الغرب وتركيا في هذه

الفترة على أنه صراع بين قوتين استعماريتين تتنافسان على الدول العربية •• مثل صراع فرنسا وبريطانيا مثلا •

لأن الرابطة العثمانية كانت في أحد جوانبها تمثل أحيانا سداً ولو واه ، في وجه الأطماع الغربية ، وهي أيضا تمثل عبئاً على الدول العربية بقدر ما تمكن للغزو الأوروبي •

أساطيل أوروبا التي هزمت محمد علي لم تشترط عليه أكثر من أن يظل تابعا لتركيا ، وأن يطبق الاتفاقيات والمعاهدات النافذة في الدولة العليا . فانهارت مصانعه ، وباع مدافعه خردة •• وانتهت أكبر محاولة جادة لقيام دولة عربية حديثة تلحق بأوروبا في القرن التاسع عشر^١ •

وأخطر ما في الاستعمار الغربي في هذه المرحلة أنه لم يكن يقوم على التفوق العسكري وحده •• ويكتفى بالجزية وصك العملة والمناداة باسمه على المنابر •• بل في أنه يقوم على التفوق الصناعي ، ومن ثم يحارب ، بل ويحتل دول الشرق ، ليمنع تطورها ، وليقيها حقلا ومنجما لمصانعه •

القضية اذن ليست في اكتشاف النظم البرلمانية ، ونظرية فصل السلطات ، ومبدأ مسؤولية السلطة التنفيذية أمام التشريعية •

(١) هناك أسباب لفشل المحاولة داخل نظام محمد علي نفسه •• ولكن معاهدة
هي الأهم •

هذه قضايا ثانوية .. وهي ليست بمعجزة للعقل العربي حتى
يحتاج لتعلمها على يد خبراء أوروبا ولو كان الثمن استقلاله !

المشكلة هي المصنع .. فهو الطريق الى البرلمان والحرية
والاخاء والمساواة .. والهدف الأول للاحتلال العربي كان منع قيام
المصنع في الشرق .. والطريق الى المصنع عندنا كان في قهر نابليون ،
وطرده من بلادنا ، ورفض خداعه لنا ، أو اثارتنا بالظلم التركي
لنقبل احتلاله ، فنقضى على كل أمل في اللجوء بركب الحضارة .
هذه المفاهيم البديهية نرانا ، آسفين ، مضطرين الى تكرارها
للرد على الدكتور لويس عوض ، على سعة علمه ، بينما لم تغب عن
حاسة شعبنا في مطلع القرن التاسع عشر .

وها هو الجبرتي .. الذي ما أظن أن مؤرخا معاصرا ، مهما
حاول أن يدين الحكم التركي ، لن يبلغ مبلغ الجبرتي ، ولا يمكن
لنفس أن تحمل احتقارا وكراهية مثل الذي حملت نفس الجبرتي ،
ونطقت به سطور كتابه عن الحكم التركي ، وهو الذي يعلق على
الشيء الذي يسميه الدكتور « لويس عوض » دستورا .. فيقول
« الى آخر ما سطروه من الكلام ، ولم يعجبني منه في التركيب الا
قوله (عن الدولة التركية) المفعمة جهلا وغباوة » .

وعندما يريد أن يصف وقوع شيء كريبه لا مثيل له يقول

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٢٣ .

« ولم يقع نظيره ولا في دولة بني عثمان »^١ .

الجبرتي الحاقده على الحكم التركي .. والذي كتب أكبر وثيقة تدين هذا الحكم .. لم يخنه حسه الوطني ، وهو يؤرخ الحملة الفرنسية ، وهو بصدقه العلمي قد عكس ، بأمانة نادرة ، الشعور الحقيقي للشعب وطبيعته المخلصة .

لو أن الصورة التي يقدمها الدكتور لويس عوض ومن سايره في هذا المنهج كانت حقيقية .. أي : لو أن مصر كانت ترزح تحت نير استعمار تركي ، فجاء الاحتلال الفرنسي مخلصا لها من هذا النير ، مقدا انقلابا وتغيرا في الحياة والحكم .. لما كان الجبرتي يبدأ الجزء الثالث بحديثه عن سنة الاحتلال بأنها هي « أول سني الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب »^٢ .

شرور ، ومحن ، وخراب ، وأهوال ، وتدمير .

هذا ما رآه المؤرخ المعاصر ، الذي لم يفقه تسجيل شاردة ولا واردة مما أثار اعجاباه بالفرنسيين . ولكنه حين أراد أن يلخص

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٦٠ .

(٢) الجبرتي ج ٣ ص ٢ .

الحملة الفرنسية كان صادقا ووطنيا في هذه العبارات : اختلال الموضوع وانعكاس المطبوع وخراب وقتن •

لا أن يرى فيها بعث القومية المصرية ، وتأسيس أول مجلس مصرى للوزراء ، وأول برلمان مصرى فى القاهرة ، وتأسيس مجالس المديرىات والمحافظات فى اقاليم مصر عام ١٧٩٨ ، وظهور بدايات الديمقراطية نظريا وعمليا فى التاريخ الحديث •

والجبرتى يعبر عن فرحته بجلاء رسل الديمقراطية النظرية والعملية ودخول ممثلى الدولة العلية فىقول :

« فلما أصبح الخميس خامسه ، اجتمع الناس من جميع الطوائف وسائر الأجناس ، وهرع الناس للفرجة ، وخرجت البنت من خدرها ، واكثروا الدورالمطلة على الشارع بأعلى الأثمان، وجلس الناس على السقائف والحوائيت صفوفًا • فكان ذلك اليوم يوما مشهودا ، وموسما وبهجة وعيدا ، عمت المسلمين فيه السررات ، ونزلت فى قلوب الكافرين الحسرات ، ودقت البشائر ، وقرت النواظر ، فله الحمد والمنة على هذه النعمة ، ونرجو من فضله أن يصلح فساد القلوب ، ويوفق أولى الأمر للخير والعدل المطلوب ، ويلهمهم سلوك سواء السبيل »^٢ •

(١) ل . ع . ص ٣ •

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ١٨٩ - ١٩٠ •

ولا يمكن أن تتهم فرحة الشعب والجبرتي بالعصية الدينية
•• فما أظن أن أحدا قد سخر من تمسح الأتراك بالاسلام كما
فعل الجبرتي •• ولكنه الحس القومي •• الذى يدرك أن العدو
الحقيقى هو النزو الاوروبى • والفرحة الصادقة التى أحسها
الشعب المصرى بخروج الفرنسيين وعودة الجيش السلطانى أسوأ
جيوش الأرض وأفحشها سلوكا وخلقا •• هذه الفرحة واعية ••
بل انها جديرة بأن تغمر نفوسنا حتى اليوم كلما فكرنا فيما كان
سيؤول اليه مصير العروبة ، لو أن نابليون قد استقر فى مصر
وتحقت أحلامه فى « تمديننا وتعليمنا الديمقراطية » •• وفعل بنا
ما فعله بغيرنا الاستعمار الفرنسى ، بل ما عجز عن أن يفعله كاملا
بغيرنا •• لأن مصر نجت من الاحتلال الفرنسى ، وبقيت حصنا
للعروبة والاسلام ، لا تذود عن نفسها فحسب ، بل وتحمى عروبة
واسلام أشقائها •

هذا ما يجعلنا ننحنى اعجابا وتقديرا لأجدادنا الفلاحين ،
« وللذعر والرعاع » فى الحسينية وبولاق ، وقد بذلوا أرواحهم
ودماءهم ، وحملوا عصيهم وفؤوسهم ، ليقاتلوا الفرنسيين الكفرة •
وتترحم مع الجبرتي على المملوك أيوب بك الدفتردار ، الذى
اختص وحده بمنقبة الاستشهاد فى يوم انبائه •^٢

(١) لا يمكن ان يغفل منصف دور مصر فى تحرير الجزائر ، بل وفى حماية العروبة كلها
•• فماذا يا ترى كان يجرى لو أن مصر تفرنست فى مطلع القرن التاسع عشر •

(٢) ص ٦٦ •

صحيح أن الاتراك هم شر أهل الأرض ، وهو شعبنا الذى قال « ثلاثة خلقن للفساد : القمل والترك والجراد » .. ولكن منذ أن وصلت سفن فرنسا المثلثة الألوان الى الاسكندرية ، تغيرت القضية تماما .. أصبح لا خيار .. اما أن تبقى مصر مصرية عربية ، واما أن تبنى تحت نير الاستعمار الغربى •

وهنا لا يتردد الوطنى ، فالقضية ليست قضية اصلاحات وتمدن .. بل وجود أو لا وجود •

وأوروبا الاستعمارية لم تحمل لنا المدنية ، بل هى التى عاقت تقدمنا ، وشلت تطورنا .. وما كان لنا سبيل للحاق بها الا بقهرها ، وابعادها عن بلادنا •

ولا يجوز أن نخذعنا هذه الألاعيب التى أقامتها فى بلادنا ، والتى لا تزيد ، ان لم تنقص ، عن نظم الحكم التى أقامها الاستعمار الغربى فى كل مكان ، بغية تحطيم الجهاز الوطنى الذى يمثل المعارضة رغم تخلفه •

الاصلاحات الادارية التى يقيمها الاستعمار لا تهدف الى تمدين المستعمرات والأخذ بيدها ، بل تهدف الى تيسير حكمه لها ، وتنظيم واحكام استقلاله لها •

تأمل كيف يروى الجبرتى تشكيل الديوان :
« وفى يوم الثلاثاء عدت الفرنسية الى بر مصر ، وممكن

بونابرت بيت محمد بك الألفى * وفى يوم الخميس أرسلوا بطلب
المشايع والوجاقلية عند قائمقام صارى عسكر ، فلما استقر بهم
الجلوس ، خاطبهم وتشاوروا معهم فى تعيين عشرة أنفار من
المشايع للديوان *

« وفى يوم السبت اجتمعوا بالديوان ، وطلبوا دراهم سلفة ،
وهي مقدار خمسمائة ألف ريال من التجار المسلمين والنصارى
القبط والشوام ، وتجار الأفرنج أيضا ، فسألوا التخفيف فلم
يجابوا ، فأخذوا فى تحصيلها » *

الأمر كما ترى شديد البساطة ، ولا داعى لفضفته * * *
عبروا ، والخميس جمعوا المشايخ وشكلوا الديوان ، والسبت
طالبوهم بالدراهم ، فسألوهم التخفيف فلم يجابوا *

الديوان اذن ليس الا جهازا يجمع الضرائب والغرامات * *
لا برلمان ، ولا مجلس وزراء ولا دستور * * فضلا عن أن تستخدم
كلمة ميثاق * * ! فهو عبث بالمسميات لا يلىق ، وتحميل التاريخ
ما ليس يطيق *

وفى ملاحظة نادرة الذكاء ، يسجل الجبرتى طبيعة الديوان
عندما يقول : « فما تم هذا الأمر حتى زالت الشمس ، فأذنوا لهم
بالذهاب » *

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١١ - ١٢ *

(٢) الجبرتى ج ٢ ص ١٩ *

ألا توحى هذه العبارة « فأذنوا لهم » بأنهم رهائن؟!

والجبرتي أيضا يروى : « وفيه أهمل أمر الديوان الذي يحضره المشايخ بيت قائد أغا ، فاستمروا يذهبون أياما ، فلم يأتهم أحد ، فتركوا الذهب ، فلم يطلبوا » •

وعندما كان « ممثلو الشعب » ينجحون في جمع الاتاوة ، كان سر عسكر لايرسل جنوده « ليشيعوا التفتيش وفي كل يوم ينقلون على الحمير والجمال من الأمتعة والفرش والصناديق والسروج وغير ذلك مما لا يحصى •• »

« واشتد الأمر بالناس ، وضقت منافسهم ، وتابعوا نهب الدور ونزل بالرعية الذل والهوان » •

« اشتد أمر المطالبة بالمال ، وعين لذلك رجل يسمى شكرالله (كان يتعاون مع المحتل بدافع من معتقداته ، كما يرى الدكتور) فنزل بالناس منه مالا يوصف ، فيأمر بهدم الدار ان لم يدفعوا له المقرر » •

« فاذا فتحوا حاصلا من الخواصل قوموا ماقيه بما احبوا بأبخس الأثمان ، وحسبوا غرامته ، فان بقي لهم شيء أخذوه من حاصل جاره (!!) ونقلوا البضائع على الجمال والحمير والبغال ، وأصحابها تنظر وقلوبهم تتقطع حصرة على مالهم » •

لاشك أنه بعث للقومية بطريقة عنيفة يادكتور !

وما الفرق بين النهب والسلب على يد عساكر الهنكار السلطان
سليم ، والنهب والسلب على يد محطمي الباستيل جنود نابليون ،
ابن الثورة الفرنسية ..؟! ألا أنهم حطموا باستيلهم ، نغفر لهم سلب
أموالنا وتحطيم بيوتنا!؟

شعبنا لم يفرق .. الا بأن الاستعمار الفرنسى هو الخطر
الداهم .

وتأمل هذه «النكته» على حد تعبير الجبرتى :

بعد اخماد ثورة القاهرة الثانية (بمعاونة الخونة من أمثال
يعقوب) جمع سارى عسكر الرهائن .. نواب الشعب .. أعضاء
مجلس النواب الأول أو الثانى .. « وجلس سارى عسكر على
كرسى فى وسط المجلس ، وقال كلاما طويلا بلفتهم حتى فرغ ،
فالتفتُ الترجمان الى الجماعة ، وشرع يفسر لهم مقالة سارى
عسكر ، ويترجم عنها بالعربى ، والجماعة يسمعون ، فكان ملخص
ذلك القول أن سارى عسكر يقول لكم يطلب منكم عشرة آلاف ألف
الى آخر العبارة الآتية » .. ثم يقول للمهدى « واذا كان الأمر
كما ذكرتم ولا يخرج من يدكم تسكين الفتنة (أى قمع الثورة)
ولا غير ذلك فما فائدة رياستكم وايش يكون نفعكم ؟

وبعد أن ألقى ممثل الحكومة بيانه .. قام من فوره مع

أصحابه الى داخل ، وأغلق بينه وبينهم الباب ، وترك نواب الشعب
أعضاء البرلمان يبولون على أنفسهم •

نعم ! •• اسمعوا الجبرتي ••

« فبهت الجماعة ، وامتنعت وجوههم ، ونظروا الى بعضهم
البعض ، وامتنعت وتحيرت أفكارهم ، ولم تنزل الجماعة في حيرتهم
وسكرتهم ، وتمنى كل منهم أن لم يكن شيئاً مذكوراً • ولم يزالوا
على ذلك الحال الى قريب العصر ، حتى بال أكثرهم على ثيابه ،
وبعضهم شرشر بوله من شباك المكان »^١ •

والذي تولى تحصيل هذه « الفرده » المرعبة هو الجنرال
يعقوب ، بطل الدكتور لويس عوض •• يقول الجبرتي « وركب
سارى عسكر (كليبر) من يومه ذلك ، وذهب الى الجيزة ، ووكل
يعقوب يفعل فى المسلمين ما يشاء »^٢ •

« ثم انهم وكلوا بالفرده العامة وجمع المال يعقوب ، وتكفل
بذلك ، وعمل الديوان لذلك بيت البارودى !

ليسمح لنا الدكتور أن نروى كيف نفذ يعقوب مهمة « تنظيم
مالية البلاد » نقلا عن الجبرتي الذى يرضى شهادته دون تحفظ ••

(١) ص ١٠٧ •

(٢) هذه المهمة التى وكلت ليعقوب يصفها الدكتور بقوله : « وكلله كليبر بتنظيم
مالية البلاد » •

«وبثوا الأعوان بطلب الناس وجسهم وضربهم ، فدهى الناس .
بهذه النازلة التي لم يصابوا بمثلها ولا ما يقاربها ، ومضى عيد النحر
ولم يلتفت إليه أحد ، بل ولم يشعروا به ، ونزل بهم من البلاء
والذل ما لا يوصف ، فضاقت الناس ، وتمنوا الموت فلم يجدوه ،
ومنعوا المسلمين من ركوب البغال ما عدا خمسة أنفار . هذا والكتبة
والمهندسون والبنامون يطوفون ويحررون ، وخرجت الناس من
المدينة ، وجلوا عنها ، وهربوا الى القرى والأرياف » .

« وفي كل وقت وحين ، ويشتد الطلب ، وتبث العيون
والعسكر في طلب الناس وهجم الدور وجرجرة الناس حتى النساء
من أكابر وأصاغر ويهدلتهم وجسهم وضربهم » .

« فدهى الناس ، وتحيرت أفكارهم ، واختلطت أذهانهم ،
وزادت وساوسهم ، وأشيع أن يعقوب تكفل بقبض ذلك من
المسلمين ، يقلد في ذلك شكر الله وأضرابه » .
أهذا تسميه « تنظيم مالية البلاد » يادكتور !؟

« واذا كان الأمر كما تقول : « كانت فرنسا يومئذ في مقدمة
دول العالم في الفلسفة السياسية والاجتماعية والقانونية ، ومن
أكثرها عصرية في أساليب الإدارة والتنظيم ، ومن أرسخها قدما في
العلوم والفنون والآداب والتكنولوجيا ، على حين كانت الامبراطورية

العثمانية ومماليكها تعيش في عزلة العصور الوسطى ، وجهاتها
وقيما الاقطاعية التي كان لا يمكن أن تؤسس عليها دولة حديثة *
صحيح! * * ولكن في النهب والسلب وتحطيم الدور وتحصيل
الضريبة بالكرباج ومن الجيران * * لا يختلف كليير عن خورشيد
* * غير أن الأول يعنى القضاء على الوجود القومي والثاني كان
يشكل بتخلفه وجهله ثغرة خطيرة ينفذ منها استعمار الأول *
لذلك نار الشعب على الاحتلال الفرنسي والمتعاونين معه * *
وكانت ثورة القاهرة الأولى والثانية * *

ولأن خيانة يعقوب كانت سافرة ، وانجازه للفرنسيين
واضحاً في الثورة الثانية - نرى الدكتور يشنع على هذه الثورة ،
ويشهر بها ، فيصفها بأنها من البداية حتى النهاية كانت قيادتها بيد
الأثراك والممالك العسكرية بمشارف القاهرة والمتسللين إليها
وعملائهم من المغاربة والغرباء * * يريد بذلك أن يبرر كون يعقوب
قد « كرنك بداره في الدرب الواسع جهة الرويعى ، واستعد
استعداداً كبيراً بالسلاح والعسكر المحاربين ، وتحصن بقلعته التي
كان قد شيدها بعد الواقعة الأولى » *

ثورة القاهرة الأولى التي يشهد الدكتور نفسه بأنها ٣ أيام
مجيدة !

ولكن يعقوب عميل الاحتلال يتخوف من مواطنيه بعد ثورتهم

(١) ل . ج . ص ٢٤ .

الأولى ، فيشيد قلعة ، ويحشد فيها السلاح والمقاتلين ، حتى اذا جاءت « الواقعة الثانية » حول بيته الى قلعة أو اسفين في جهة الثوار .. وبعد اخماد الثورة يقرر كليبر تكوين فيلق لضرب الشعب ، ويعهد الى يعقوب بتشكيله وقيادته .. ويعتذر الدكتور عن يعقوب ، ولو على حساب التاريخ ، فيقول ان الفيلق قد تكون ليعاون الفرنسيين في حربهم ضد المماليك .

غير صحيح .. لأن الدكتور هو نفسه الذى يعتذر في مكان آخر من نفس الكتاب ، فيقول ان تكوين الفيلق كان رد فعل لانحراف ثورة القاهرة الثانية الى حرب دينية صريحة ، بل ويبالغ في الاعتذار الى حد اتهام هذه الثورة بالعنصرية والعمالة .. « والذهب المتدفق من تركيا وانجلترا » !!

من أجل تبرئة يعقوب الذى كرتك ، مكتوب على ابن آدم أن يتهم بالعمالة والتعصب .. أجداده الذين بذلوا أرواحهم في ثورة القاهرة الثانية !

والثابت أنه لم تكن هناك حرب بين الفرنسيين والمماليك في هذه المرحلة ، بعد أن رضى مراد بك بدور التابع ، وبعد موقفه المخزى من ثورة القاهرة الثانية الذى فضحه الجبرتى .

« وأما مراد بك فانه بمجرد ما عاين هجوم الفرنسيين على الباشا والأمراء بالمطرية ، وكان هو بناحية الجبل ، ركب من ساعته

هو ومن معه ، ومروا من سفح الجبل ، وذهب الى ناحية دير الطين
ينتظر ما يحصل من الأمور ، وأقام مطمئنا على نفسه ، واعتزل
الفريقين ، واستمر على صلحه مع الفرنسيين »^١ .

« ومنها أن مراد بك عند توجهه للصيد بعد انقضاء الصلح
أخذ ما جمعه درويش باشا من الصعيد من أغنام وخيول وميرة ،
وأرسل مراد بك جميع ذلك للفرنساوية بمصر »^٢ .

وليس من العدل أن تتهم ثورة القاهرة بأنها كانت « حربا
دينية صريحة » لمجرد أنها هاجمت يعقوب الذي كركك .. لأن
الثوار الذين هاجموا يعقوب هم الذين أمنوا جرجس الجوهري
وفلتوس الماطي اللذين ساهما في الثورة بأموالهما .. وهم الذين
نهبوا دار الشيخ خليل البكري وسحبوه مع أولاده وحرمة
وحصلت له اهانة بالغة لأنهم اتهموه بموالة الفرنسيين .. وهجموا
بيت مصطفى أغا مستحفظان لأنه يأوى فرنسيس ، وخنقوه ليلا
بالوكالة التي عند باب النصر، ورموا جيفته على مزبلة خارج البلد» .

فلماذا يشوه لويس عوض هذه الثورة التي لم تفرق بين
الأديان في الوطنية والحيانة .. لماذا يتهمها في محاضرات معهد عربي :
« تحولت ثورة القاهرة الثانية الى مسرح للمذابح الدينية ، ومرجل
للمضائن الشخصية ، فاستيح فيها كل شيء » +

(١) ج ٣ ص ٩٥ .

(٢) ص ١١٣ .

الجبرتي ولو أنه لم يشترك في الثورة ، الا أنه مؤرخ أمين
•• سجل كل مظاهر الضعف في ثورة يقوم بها سكان عاصمة
شرقية في مطلع القرن التاسع عشر يعاونهم أفسد جند في العالم ••
ولكنه أبدا لم يعلن الثورة ، بل خفق قلبه بحبها •

« ولم ينم بيته سوى الضعيف والجبان والخائف »^١ •

أهذه كلمات رافض للثورة !؟

« وباشر السيد احمد المحروقي وباقي التجار ومساير الناس
الكلف والنفقات والمآكل والمشرب ، وكذلك جميع أهل مصر ،
كل انسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه ، وأعان بعضهم بعضا ،
وفعلوا ما في وسعهم وطاقتهم من المعونة »^٢ •

« وجرى على الناس ما لا يسطر في كتاب ، ولم يكن لأحد في
حساب ، ولا يمكن الوقوف على كلياته ، فضلا عن جزئياته ، منها :
عدم النوم ليلا ونهارا ، وعدم الطمأنينة ، وغلو الأتوات ، وفقد
الكثير منها ، خصوصا الادهان ، وتوقع الهلاك كل لحظة »^٣ •

شكرا يا مؤرخنا العظيم •• فقد حميت شرف أمتنا من الذي
يتهم أجدادنا بالثورة بدافع الذهب التركي والانجليزى !!

(١) ص ٩٣ •

(٢) ص ٩٤ •

(٣) ص ٩٨ ج ٣ الجبرتي •

ولما قهرت « ثورة القاهرة الثانية » كما تعلمنا أن نصفها ••
و « الحرب الدينية الصريحة » كما يعلم الدكتور لويس أبناءنا في
معهد الدراسات العربية بالقاهرة •

بعد أن قهرت الثورة ، أو الفتنة كما يرى الدكتور ، تولت
أمة الحرية والمساواة والاخاء تطبيق الديمقراطية عمليا بعد أن
طبقتها نظريا ••

يقول الجبرتي « وقاتل أهل بولاق جهدهم ، ورموا بأنفسهم
في النيران ، حتى غلب الفرنسيين عليهم ، وحصروهم من كل جهة ،
وقتلوا منهم بالحرق والقتل ، وبلوا بالنهب والسلب ، وملكوا بولاق ،
وفعلوا بأهلها ما يشيب من هول النواصي ، وصارت القتلى مطروحة
في الطرقات والأزقة •• والذي وجدوه منعكفا في داره أو طبقته
ولم يقاتل ولم يجدوا عنده سلاحا نهبوا متاعه ، وعروه من نيابه ••
فحبسوا البشتيلي بالقبيلة ، والباقي بيت ساري عسكر ، وضيقوا
عليهم حتى منعوهم البول • وفي اليوم الثالث أطلقوهم ، وجمعوا
عصابة البشتيلي من العامة ، وسلموهم البشتيلي وأمرهم أن يقتلوه
بأيديهم » •

الدكتور لويس عوض يريدنا أن نلعن أبطال بولاق ، أو حتى
أن نغفر لهم أنهم بدافع العصية الدينية قبلوا الموت والهلاك ••

وأن نشيد يعقوب ، الذى « كرنك » بداره ، وقاتل مع الفرنسيين ،
وكون فيلقا لضرب الشعب •

والدكتور يحاول أن يجعل موقف يعقوب مشابها لموقف
المشايخ الذين قبلوا عضوية الديوان مثلا •• والفرق كبير بين « من
هو فى القبضة مأسور » كما يقول الجبرتي •• وهم المشايخ الذين
قبلوا عضوية الديوان أو المناصب التى اخترعها المحتل بدافعين :

♦ الأول •• هو حماية الرعية من التنكيل والابادة ، ومنما
لتصدى من تحركهم الأحقاد فى حالة المقاطعة الوطنية للسلطة
المحتلة •

♦ والثانى •• هو الضعف البشرى الذى يحتم مداراة القوة
العاشمة التى لا سبيل الى دفعها •

والفرق واضح بين من يقبل عضوية الديوان ، أو حتى يبرق
مهثا الى فرنسا تحت تأثير الارهاب والضغط ، ولكنه لا يتردد فى
القاء شعار الثورة الفرنسية متأففا •• أو يحمل «الوردة» (شعارهم)
اذا دخل على الحكام ويخلعها اذا خرج مستغفرا •

وبين الذى يقبل تكوين جيش لضرب مواطنيه ثم يتبرع
بشئى نفقات اقامة تمثال لأحد قادة جيش الاحتلال ، ويتمنى أن
يدفن معه فى قبر واحد •

وعندما تقرر جلاء الفرنسيين اقترح يعقوب أن تلجأ فرقة

فرنسية الى النوبة وتدعى العريان ، ثم تعود لاحتلال مصر بعد جلاء
الانجليز !! .. ولعله بذلك كان يسبق مخطط منظمة الجيش الفرنسى
السرية فى الجزائر بقرن ونصف قرن !

وفى النهاية يخرج مع فلول الجيش المهزوم من البلد الذى
خانته .. وعلى بارجة انجليزية ركبها يوم ١٠ أغسطس ، ويوم ١٢
أصيب بالحصى ، ويوم ١٦ أغسطس مات و آخر كلماته أنه يريد أن
يدفن مع ديزيه .. « فوضعوا جثته فى برميل خمر ونقلوه الى
«مرسيليا» .

ومن برميل الخمر تنطلق « حكاية » تزعم أنه على ظهر
البارجة البريطانية فاجأ القدر ودخل التاريخ بأول مشروع لاستقلال
مصر .. !

متى؟! .. يقول الدكتور قبل اصابته بالحصى ؟ أى فى ٤٨
ساعة كانت السفينة تتأهب فيها للرحيل بجيش معاد منهزم !! أى
وقت جميل لبحث مشروع دولى؟! .. ولماذا لم يعرضه على الفرنسيين
خلال ٣ سنوات من احتلالهم .. ولماذا لم يذهب الى معسكر القائد
العام للجيش البريطانى فى مصر؟! ..

وسواء أكان المشروع من اقتراح المجنون عديم الجنسية
لاسكاريس ، أم من نمر أفندى ، أم من اختراع الانجليز الذين

نشروا المشروع لأول مرة في ١٩٢٤ ' .. مهما يكن مصدر
المشروع وصحته .. فهو على أحسن الفروض مشروع لتدويل
مصر واقامة حكم طائفي يعيش على اثاره الصراع بين الطوائف ،
وبحماية جيش احتلال دولي ، يسميه الدكتور « بوليس دولي بلغة
العصر » !

يقول الدكتور « الجنرال يعقوب يرى الحل في وجود قوة
أجنبية مرتزقة في مصر ، وهي في نظرة كافية تماما لرد عدوان
الأتراك على حدود الصحراء » •

هل كان الخطر على مصر وعلى الشرق من الأتراك .. الرجل
المريض .. أم من الاستعمار الأوروي الزاحف ؟!

والمشروع المزعوم يقول في خبث : « ولا يفوتنا أن نذكر في
هذا المقام أن مصر المقسمة الى طوائف متعددة تتوفر بها الوسائل
اليسيرة لاقامة التعارض فيما بين هذه الطوائف فتكافأ بذلك قواها» •
الدكتور يسمي ذلك استخدام توازن القوى !!

ونحن نعيد نسبة هذا القول الى أي مصري ، حتى ولو كان
طريح برميل الروم •

والمشروع يطلب الحماية من الدول السامية المتعاقدة، ويعرض

(١) في هذه السنة الخيت الحلافة من تركيا .. وثارت فكرة لاعادتها عربية .. وفي
مصر بالذات ..

على بريطانيا التجسس لحسابها ، ويقدم لها شفرة لتستخدمها مع بقايا
أعوانه في مصر . . . ومن يدري لعل هؤلاء هم من كانت حملة فريزر
تنتظر معوتهم *

والتجسس ليس غريبا على يعقوب ، وقد سبق أن كلفوه
بإشياء شبكة للتجسس تمتد من مصر الى الشام *

وإذا كان الدكتور لويس قد نشر في كتابه هذا المشروع
المريب والمشكوك في أصله تحت عنوان « الوثيقة رقم ١ والوثيقة
رقم ٢ . . . فليسمح لنا أن نضيف اليهما الوثيقة رقم ٣ . . .

من نمر أفندي لوزير الخارجية الفرنسية تاليران ١٨ صفر
١٢١٦ » سينزل في مرافق الجمهورية الفرنسية عدد غير قليل من
مهاجرين شرقيين تركوا بلادهم مع ذلك الجزء من جيش الشرق
الذي تم جلاؤه عن مصر * والوفد المصري^١ بالرغم من أنه قد حرم
من رئيسه الجنرال يعقوب الذي مات أثناء السفر يعلن كل ما يحسن
به من ولاء وحب للجمهورية الفرنسية ، ويرى من واجبه أن يلجأ
إليك أيها الوزير لتفضل وتضعه هؤلاء المهاجرين في كنفك *
فات الدكتور أن يسجل للوفد أنه أول من أدخل نظام اللجوء
السياسي في الشرق *

(١) الدكتور يثير ضجيجا حول عبارة « الوفد المصري » زاعما انها تعنى التطلع
للقومية المصرية . . . مع أن الجبرتي يسمى الماليك « الأمراء المصرية » وقرعون
يقول « أليس لي ملك مصر » . . . والشوار الذين حاصروا عثمان بن عفان اسمهم
في كتب السير « المصريون » ! . . . فكلمة مصر ومصريين لم تتخذ في القرن
التاسع عشر . . .

يقول نمر « واليوم نرى الجمهورية الفرنسية تحت حكم
القنصل الأول تحقق دون عناء ما عجزت عن تحقيقه - اللهم الا
الجزء الضئيل منه - الملكية الفرنسية المطلقة » .

وأحد أعضاء هذا الوفد انضم الى الجيش الفرنسى وظل به
الى أن مات فى ١٨٤١ وأغلب الظن أنه اشترك فى فتح الجزائر ..
ومن حقنا أن نتساءل .. ان كان قد سافر لفرنسا سعيا لاستقلال
مصر ، فلماذا لم يعد فى عصر محمد على ؟

بش ما اختار المؤرخ لقومه .. هذا يعقوب بداية لتطورنا
القومى ! بينما المقول هو أن عمر مكرم الذى تزعم مقاومة الاستبداد
الملوكى قبل الاحتلال الفرنسى ، هو الذى رفض الخضوع
للاحتلال .. هو الذى قاتل مع المحروقى فى ثورة القاهرة الثانية
ضد كليبر ولو تحت قيادة الوزير التركى ، وهما معا حاصرا الباشا
التركى فى القلعة بعد جلاء الفرنسيين ، حتى خلع وأجبر السلطان
على فرمته من اختاره الشعب .. هو عمر مكرم الذى قاتل الغزو
الانجليزى فى رشيد .. وهو الذى تصدى لاستبداد محمد على ..
هذا هو التطور السليم للحركة القومية .. لا أن نفتش عليه
تحت أعلام فرنسا ، وفى برميل خمر يحمل جثة خائن فرارى ..
هارب من وطنه ' .

(١) لا يفوتنى أن اعترف بأن حكاية يعقوب هذه قد ارتكبت (نا خطيئة ترديدها
والاشادة به .. ولكن عذرى أن ذلك كان منذ أربعة عشر عاما وكنت لم أبلغ
سن الرشد بعد عندما ألفت كتابى الاول « مصريون .. لا طوائف » .

غير أن الجنرال يعقوب ليس الا « الخلفية التاريخية » لما يريد الدكتور لويس عوض أن يحفره في عقول طلابه بمعهد الدراسات العربية * * وخارجه * * تماما كما كانت الحملة الفرنسية هي المقدمة للغزو الفكري الذي تتابع منذ وصول نابليون الى شواطئنا ، حتى انتهى الى الاحتلال العسكري للوطن العربي من المحيط الى الخليج .

فبعد أن نسلم ، مع الدكتور ، بأن الحملة الفرنسية هي بداية تاريخنا الحديث ، وأن كبير المتعاونين معها هو رائد القومية * * !! ينطلق الدكتور في دراسته لرفاعة الطهطاوى ويقرر لنا :

« ان فكرة الحرية بمعناها السياسى والمدنى فكرة لا تقاليد لها في المجتمعات العربية ، أو فيما نبع عنها من فلسفة الفلاسفة ، أو فقه الفقهاء ، أو أدب الأدباء ، بل ان مدلول كلمة « الحرية » في اللغة العربية ذاتها ، مدلول مختلف عن كلمة *libertas* اللاتينية التى خرجت منها كلمة (ليبرتيه) ومشتقاتها من اللغات الأوروبية الحديثة ، فهى لا تستعمل فى معناها الأصيل فى العربية الا كمقابل للعبودية * * * » ' .

« وقد اقترن بهذا الوضع اللغوى ، وضع حيوى وهو أن كلمة (الحرية) لم ترفع أبدا كشعار أو مبدأ أو هدف سياسى أو

اجتماعى فى كل ما نشب من ثورات أو حركات استقلالية فى العالم العربى قبل القرن التاسع عشر « ١ » .

ومن ثم (الحرية) اذن بالمعنى السياسى والاجتماعى الشامل المتضمن فى كلمة *libertas* نتيجة لاتصال العرب بالحضارة الأوروبية وبالفكر السياسى والاجتماعى العربى فى القرن التاسع عشر « ٢ » .

شكرا يا دكتور ..

هذا هو ما نعيه (بالغزو الفكرى) .. أن تؤمن بأن عدوك الألد هو ولى نعمتك .. أن ينشأ جيل يؤمن بأنه يدين بتعلم الحرية لأوروبا .. لا أنه فقد الحرية بسبب أوروبا ، التى احتلت بلادهم وقضت على حريتهم ..

لا ..

الدكتور يعلم الطلبة العرب .. أن الجزائر عرفت الحرية يوم الاحتلال الفرنسى لها .. ومصر يوم احتلال فرنسا ثم فقدتها الى أن عادت لها على بوارج « سيمور وش القملة » ٢ .

الدكتور يعلمنا أن أوروبا هى التى علمتنا الحرية .. الحرية التى لم نعرفها ، ولم نثر من أجلها .. بل عجزت لغتنا عن أن نجد

(١) صفحة ١٢٦ .

(٢) صفحة ١٢٦ .

(٣) قائد الأسطول البريطانى سنة ١٨٨٢ .

لفظا لها •• تماما كما تعجز لغات الشعوب البدائية عن العد ، فتقول
على ما جاوز العشرة •• كثير !

وهل بعد ذلك من استسلام للغزو الأوروبى •• ؟! أن يقوم
فينا من يؤمن ويعلم بأن أوروبا علمتنا الحرية •• وهل بعد ذلك
من ظلم واقتراء على تاريخنا •• ؟!

نحن العرب •• الأمة الوحيدة - وقانا الله شر العنصرية التى
لا يعرفها ديننا ولا خلقنا العربى - التى مارست الحرية كحق طبيعى
لا يقبل المناقشة ولا يحتاج الى اقرار أو استصدار قانون ••
نحن العرب •• أمة تعاتب الملك الجبار ، اذا صعر خده
للناس ، بسيوفها •

أمة كان رجالان من عامتها يتراهنان على التعريض بأرداف
أمير المؤمنين فى المسجد !

أمة منها أبو مريم السلولى •• مسلم ارتد ، وقتل فى رده
الشهيد زيد بن الخطاب ، ثم أسلم فحمى الاسلام دمه وماله ••
ويدخل على عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وأقوى حاكم فى عصره ••
فلا يخفى أمير المؤمنين عواطفه، ولا يتظاهر بحب قاتل أخيه ، فذلك
ضد طباع البشر •• ونحن لسنا أكثر من بشر •• بل يقول عمر
لأبى مريم « والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المراق عليها •»

(١) سننناش هذه الفرية بالتفصيل فى كتابنا القادم : « الحرية فى الاسلام » الذى
خصصناه لتفنيد مزاعم الدكتور لويس عوض عن الحرية عند العرب •

فلا ترتعد فرائص قاتل شقيق أمير المؤمنين بل يسأله « وهل
يضمنى ذلك حقا من حقوقى » •• فيستعيز أمير المؤمنين ••
« لا والله •• » ويردد الرجل « لا أبالي •• انما يبكى على الحب
النساء » •

اللهم لا عنصرية ولا شوفينية • ولكن يصعب على الباحث أن
يجد مثلا أعظم من ذلك لخضوع العلاقة بين الحاكم والمحكوم لارادة
القانون لا لمواطف الحاكم ••

أبو مريم وهو يناقش عمر فى حقوقه ، والمرأة تخطىء عمر
على المنبر فيادر بنقد نفسه علنا « أخطأ عمر وأصابت امرأة » ••
والمرأة البدوية الأخرى على مشارف المدينة تدعو على عمر أمام
رجل غريب لا تعرف من هو •• فيعتذر الرجل عن عمر قائلا
« ومن أدري عمر بكم ؟ » فتجيه المرأة بأعظم تعريف لمسئولية
الحاكم « ويله •• يلي أمورنا ثم يغفل عنا؟! » فترتعد فرائص عمر
من المسئولية ويذهب يعدو ليحمل الدقيق والسمن على ظهره •

هؤلاء جميعا مواطنون أحرار يمارسون الحرية كما يمارس
المرء الوظائف الطبيعية •• ليس بحاجة الى مرسوم يؤكد حقه فى
التنفس •

ولقد أكبر الكثيرون الحرية الأمريكية التى مكنت معترضا
على سياسة كنىدى من أن ينشر فى الصحف اعلانا يطلب القبض
على كنىدى !

ولكن منذ أربعة عشر قرناً جاء عبد فارسي يشكر لعمر بن الخطاب ، ولما لم يعجبه قضاء عمر هدد أمير المؤمنين بالقتل .. وفهم عمر التهديد وقال « توعدني العبد .. » ولم يقبض عليه ، ولا قلمت أظفاره ، بل ترك حراً حتى نفذ تهديده .. وكم كانت خسارة الانسانية فادحة بمصرع عمر .. ولكن خسارتها كانت ستكون أفدح لو أن الاسلام أقر مبدأ اعتقال الناس بالشبهات .. بالعكس هو يدرأ الحدود بالشبهات ..

الأصل في المجتمع العربي أن الناس أحرار .. بينما بدأت أوروبا القرون الوسطى بأن الناس غير أحرار .. فلم تقم عندنا ارستوقراطية موروثة ، ولا أتباع متوارثون .. ربما لأنه لم يعرف الاقطاع الزراعي في بلاد العرب ، ولعل ذلك ما أشار اليه الرسول الكريم في قوله : « ما دخلت السكة (الزراعة) أرض قوم الا ذلوا » •

ثورتنا كانت دفاعاً عن الحرية الموجودة أصلاً ، ورداً للظلم الحكام ، ولو باصرار الفقيه على بيع السلطان .. أما في أوروبا فكانت للتسليم أولاً بأن الناس أحرار •

ويقول الدكتور « ومن أهم المبادئ التي أخذها رفاة رافع عن فلاسفة التنوير في أوروبا وعن فلاسفة الثورة الفرنسية ... فكرة التسامح بوجه عام ، والتسامح الديني بوجه خاص » •

ما رأيك يا دكتور في شهادة غوستاف لوبون : « ان العرب هم أول من آمن بما نطلق عليه حرية الفكر والتسامح الديني » •
بل ان البعض يأخذ على حضارتنا تسامحها المطلق •

ان حضارتنا هي أول حضارة تقوم على التسامح بين مختلف الأديان والأجناس في داخلها ، والتعايش السلمى بين مختلف الدول والنظم •

أول حضارة يحرم دينها قتل الآخرين لمجرد اختلافهم معنا في العقيدة أو الرأى ، وأول حضارة يقوم تشريعها على افتراض الوجود الأبدى للمخالفين في الرأى والدين ، والقرآن يعلن أن هذا التعدد من مشيئة الله الذى لو شاء لجعل الناس أمة واحدة •• ولكن خلقهم شعوبا وقبائل ، لا لكى تسود قبيلة الله المختارة ، بل ليتعارفوا •

نحن لم نتعلم التسامح من أوروبا •• بل علمناه للدنيا كلها •• وما زالت بحاجة الى أن تتعلم منا المزيد •

أما مالا يعقل ولا يتصور فهو قول الدكتور أن الشيخ حسن العطار تعلم من الفرنسيين أن الدنيا لا تتعارض مع الدين ! وأن الطهطاوى وصل الى رفض « نظرية الزهد والنسك وكافة وجوه الرهبانية وما يسمى فى اللغات الأوروبية Monasticism من كتاب ارزاموس الشهير « دليل الجندي المسيحى » •

« فهذه الحجج التى يسوقها الطهطاوى دفاعا عن المال وعن

«الدنيا تذكرنا بكل ما قاله ارزاموس فى « دليل الجندى المسيحى »
فارزاموس قبل الطهطاوى استخدم الحجج الدينية ليتبث للعالم
المسيحى أن الدنيا لا تتعارض مع الدين •• وان المال لا دنس فيه»
لا •• لا يا دكتور •• ليس هكذا يتكلم العلماء •• ولا أشباه

العلماء ••

الاهتمام بالدنيا جزء لا يتجزأ من تعاليم ديننا •• وعندنا أكثر
من نص صريح « لا رهبانية فى الاسلام » •• « اليد العليا خير من
اليد السفلى » ••

وعندما أشاد وفد الأعراب بصاحبهم الذى يقوم الليل ويصوم
النهار وسألهم النبى فممن يهتم بحاجاته •• قالوا فى فخر •• كلنا ••
قال رسول الله « كلكم خير منه » •

وعمر ضرب الرجل المتماوت من شدة الزهد قائلاً « لا تمت
علينا ديننا أمانك الله » •• وفى ديننا أن « المال والبنون زينة الحياة
«الدنيا» بل ذهب بعض المفسرين الى أن القرآن لم يتحدث عن المال
إلا باعتبارها (الخير) أو أنه لم يذكر الخير إلا وهو يعنى المال ••

لا يا دكتور •• الثورة على الرهبانية تعلمتها أوروبا من
المسلمين خلال الحروب الصليبية ، فلما انهارت حضارتنا لجأنا الى
فلسفة التخلف والانقياد ، واقتبسنا من أوروبا العصور الوسطى
المظلمة نظام التكايا والتسول والدروشة •

لا يا دكتور •• فى هذه خانتك البراعة •

أما أنت أيها العربي المسلم •• فلا يروعنك تخلفنا •• هنا
قضاء التاريخ ، وعقابنا على البعد عن روح حضارتنا وديننا •
وقد جاء دورنا •• ولا بد أن تتعلم علم أوروبا كله ، وأن
نصل الى ما وصلت اليه من صناعات وفنون •• فهذه الآلات فهرتنا
وأذلتنا وأشمتت فينا كل حقوق لثيم •
ولكن •• ليس بنقل المصانع والآلات تبنى الأمم •• ولا تشاد
الحضارات بالافتخاس والتبعية الفكرية ، بل بتحرير الروح القومية •
بعث حضارتنا الزاهرة •
لنكن عربا مسلمين يعيشون في القرن العشرين •
نحن الذين أصدرنا لائحة الحقوق المدنية قبل الكونجرس
الأمريكي بأربعة عشر قرنا •
نحن الذين أعطينا البشرية الكثير •• وما زالت عطشى تنادينا
أن نعطها •
وما زال لك أيها العربي المسلم دور رائع لتلعبه •• لا بالآلات
وحدها ، ولا باستيراد المبادئ من الشرق والغرب •• بل برسالة
السماء ••

بدين محمد بن عبد الله ••

ابن امرأة كانت تأكل القديد •

يوليو ١٩٦٤

يناير ١٩٦٦

فهرس

الصفحة	الموضوع
(أ)	خطبة الطبعنة الثانية
(د)	الرد على مقدمة « على هامش الغفران
١	العروبة والاسلام
٨	وجودنا فى عروبتنا
١٧	خلاف حضارى
٢٩	الغرب الصليبي
٤٧	مصطفى محمود
٥٣	غالى شكرى
٨٧	الأرض
١٠٧	جميلة .. أم سيمون
١٢٤	لويس عوض

استدراك

وردت بالمقدمة بعض أخطاء يجب تصويبها وهي :

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
ينطبق	ينطق	٥	٣
وما	ما	و	١٨
طب علينا	طب عينا	ل	الأخير
إن الذي	من الذي	م	٣
مدون	مدن	ص	٦
لتفويه	لتفويه	غ	١٦
	تحدف الواو التي قبل السطر الثاني من البيت الأول	ث	

للمؤلف

مصريون لا طوائف

١٩٥٠ (نفذ)

الجهة الشعبية

١٩٥١ (نفذ)

قانون الأحزاب

١٩٥٢ (نفذ)

روسي وأمريكي في اليمن

١٩٥٧ (نفذ)

شرف المهنة

١٩٦٢

الماركسية والغزو الفكري

١٩٦٥

(قريبا الطبعة الثانية)

الحرية في الاسلام

(تحت الطبع)

الدار القومية للطباعة والنشر

هذا الكتاب

- يناقش علاقة الاسلام بالثورة العربية .
- يفسد المفاهيم المعادية للاسلام التي ابتدعتها « ثورة لورنس وورثتها الحركات القومية في الشرق العربي .
- يرى ان اسلامية الثورة الجزائرية ليست ظاهرة جزائرية بل الوضع الطبيعي للثورة العربية الشاملة .
- يناقش بعض النماذج المتأثرة بالغزو الفكري الاستعماري .
- يرى ان الغرب يشن الآن حملة جديدة في الحرب الصليبية الابدية بين الغرب والشرق .

الغلاف تصميم الفنان عزت

التمن ٣٠ قرشا

Bibliotheca Alexandrina



0215793